جامعة محمد خيضر بسكرة
كلية الآداب واللغات
قسم الآداب واللغة العربية

مذكرة ماستر

الميدان: لغة وأدب عربي
الفرع: دراسات نقدية
تخصص: نقد حديث ومعاصر
رقم: ن/31

اعداد الطالبتان : قميدة وسيلة
: قط مريم

الأنا والآخر من منظور ما بعد الكولونيالية في رواية فضل الليل على النهار لـ" ياسمينة خضرة"

لجنة المناقشة

عبد الرحمان تبرماسين	أستاذ	بسكرة	رئيسا
نصر الدين بن غنيسة	أستاذ	بسكرة	مشرفا
بن دحمان عبد الرزاق	أستاذ	بسكرة	مناقشا

السنة الجامعية: 1442-1443هـ/2020-2021م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

نحمد الله عزوجل الذي وفقنا لتتويج عملنا هذا بالنجاح
و بكل معاني الشكر و العرفان نتوجه
إلى كل من أمدنا بالمساعدة سواء من قريب أو من بعيد
و وقف إلى جانبنا لإخراج هذا العمل على هذه الصورة
وإن كان لنا أن نخص أحدا بالذكر فلا يسعنا إلا أن نقدم خالص شكرنا و امتناننا

للأستاذ القدير" نصر الدين بن غنيسة"

الذي وجهنا بكل إخلاص في العمل و أخلاق طيبة معاملة راقية
دام الله في عونه حيثما كان و أينما وجد
و أخيرا فإن وفق هذا العمل وحوى في طياته على إيجابيات و نجاح يذكر فالفضل فيه منسوب لجميع من ساعدنا.

مقدمة

مقدمة

مقدمــة:

إنه لمن الصعوبة بمكان الإلمام بنظرية مترامية الأطراف متعددة الشعاب، عميقة الفكر، غائرة الفلسفة كنظرية ما بعد الكولونيالية التي جمعت في جعبتها ثلة من أهم جهابذة الفكر والفلسفة عبرالعالم فلعله من هنا تتأتى أهمية دراستنا هذه التي نحاول من خلالها استعراض أهم الأسس والمبادئ التي شيدت عليها هذه النظرية التي جاءت تحلل الخطاب الاستعماري وتعيد قراءة التاريخ من وجهة نظر المستعمر، والتي تأسست على يد الناقد الفلسطيني ادوارد سعيد طرحت رغبتنا في دراسة هذا الموضوع بعض الإشكاليات والتساؤلات التي تمثلت في :

ما مفهوم هذه النظرية وعلى أسس قامت ؟

هل هناك أزمة هوية من خلال اسقاط الأسس النظرية على المدونة معتمدة في الدراسة؟

وما مدى تأثير الارث الثقافي الذي خلفه المستعمر على شعوب المستعمرات ؟

ومن أجل الإجابة على إشكالية المطروحة اعتمدنا خطة بحث تعيننا على إزالة الاستفهامات المطروحة ، والتي كانت وفق التالي : اعتمدنا مدخلا نظريا يطرح، ، ذات الصلة بالنظرية مابعد الكولونيالية إضافة إلى فصلين تطبيقين ،كان الأول بعنوان تجليات الهوية عبر المكان والزمان ، حيث تناولنا في خصم هذا الفصل تجليات هوية وشخصيات الرواية عبرحيزها المكاني والزماني ، وأما فيما يخص الفصل الثاني المعنون بامتداد الكولونيالية بين الأنا والآخر ،فقد ضم عناصر تمثلت في الأنا والآخر داخل الإطارها الكولونيالية إضافة إلى مدى التفاعل بين الأنا والآخر في ظل مابعد الكولونيالية .

لقد اختارت هذه الدراسة منهجا سارت وفقه هو المنهج الوصفي التاريخي معتدة ، في ذلك هلى مراجع أهمها :كتاب آنيا لومبا، الموسوم في نظرية الاستعمار و ما بعد الاستعمار الأدبية.

وكذلك كتاب بيل اشكروفت :دراسات ما بعد الكولونيالية :المفاهيم الرئيسية إضافة إلى بعض المراجع الأخرى مثل كتاب رامي أبو شهاب ،الرسيس والمخاتلة، وكتاب لنبيل راغب ،موسوعة النظريات ،ولا شك أن جل الدراسات عرضة لصعوبات وهو ما لم تفلت منه دراستنا،حيث تمثلت الصعوبات في الوضع الصحي الراهن الذي حال بيننا وبين السير المنتظم في العمل ، كذلك قلة الدراسات في هذا الموضوع و النظرية، وأخيرا وليس آخرا لا يفوتنا التقدم بالشكر العظيم للأستاذ المشرف على ما قدمه من أجل سير موفق في العمل.

مدخل:

الإطار المفاهيمي

المدخل: الإطار المفاهيمي

مدخـل:

1. في ماهية المصطلح :

أ: الكولونيالية/ الاستعمار:

تعد كلمة كولونيالية نقلا حرفيا لكملة colonialism من لغتها الأجنبية إلى العربية حيث تعرف آنيا لومبا المصطلح بأنه:" يعني المزرعة أو المستعمرة، أي مجموعة من الناس يستقرون في موقع جديد ويشكلون جماعة خاضعة لدولتها الأم أو مرتبطة بها. وهكذا تتشكل الجماعة و تتألف من المستوطنين."[1]

حيث ربطت آنيا الكولونيالية في تعريفها بالمكان أو الحيز، فحسبها لا يتجسد الكولون أو الاستعمار فعليا إلا في حيز مكاني يضمه و يتجسد داخله، في حين يعرف بيل إشكروفت لفظة الكولونيالية فيشير في ذلك إلى أنه الفترة الممتدة بين أول لحظات الاستعمار إلى غاية آخر لحظة منه قبل حصول المستعمرة على استقلالها.

حيث يقول: "فترة الحكم الاستعماري داخل المستوطنات قبل حصول هذه الأخيرة على الاستقلال، و ذا أهمية في تحديد الشكل المحدد للاستقلال الثقافي الذي تنامى بالتزامن مع التوسع الأوروبي خلال القرون الأربعة الفائتة"[2] و ما قد نلاحظه على تعريفي كل من آنيا لومبا و بيل إشكروفت أن الأولى ربطت الكولونيالية بالمكان في حين ربط بيل الكولونيالية بالزمان كل حسب منظوره.

---

[1] آنيا لومبا، في نظرية الاستعمار و مابعد الاستعمار الأدبية، تر:محمد عبد الغني غنوم، دار الجوار للطباعة و النشر و اتوزيع، ط1، سوريا، 2007، ص17

[2] بيل إشكروفت و آخرون، دراسات ما بعد الكولونيالية، المفاهيم الرئيسية، تر: أحمد الروبي و آخرون، المركز القومي للترجمة، ط1، 2010،ص105.

الكولونيالية هي فترة الاستعمار و الاستبداد الذي تعيشه جميع المستعمرات دون استثناء كما يضيف بيل في السياق نفسه قائلا:" إقامة مستوطنات على أرض بعيدة."[1] ويقصد بيل هنا بالأرض البعيدة المستعمرات على اختلاف أماكنها و مواقعها، أما في قواميس الترجمة فنجد بعد البحث عن مفهوم الكولونيالية أنها مرادفة للاستعمار، ولهذا المصطلح تعريفات عدة فنجدها عند اسماعيل عبد الفتاح في قاموس المصطلحات السياسية معرفة على النحو التالي: "الاستعمار أو الاستعمارية هي نزوع االدول الكبيرة لفرض سلطانها

وإرادتها على البلدان الأخرى.

و الاحتفاظ بهذه السيطرة بمختلف الوسائل السياسية، الاقتصادية و العسكرية و محاولة تغيير هوية البلدان المستعمرة و ربطها بالدول الاستعمارية ربطا عضويا و لغويا و ثقافيا و اقتصاديا و استغلال ثرواتها و أيضا إقامة المشروعات المتعددة فيها. "[2] أي محاولة الطرف الكولونيالي الهيمنة على المستعمر و على كل جوانب حياته، مثلما ما كانت آنفا تعتمده فرنسا على الجزائر، من نهب للثروات و رغبة في نشر الثقافة الفرنسية من لغة ودين، والأعظم من ذلك طمس كل مغالم الهوية الجزائرية وإبادتها ليسهل التحكم فيهم وفرض مكونات حضارتهم.

ولا تكتفي آنيا لومبا بتعريفها للكولونيالية بل تضيف في تعريفها للاستعمار فتقول: " يمكن تعريف الاستعمار بأنه غزو الأرض وممتلكات شعب آخر والسيطرة عليها"[3] هنا نجد أنفسنا نعود للفكرة السابقة التي مفادها أن آنيا تربط الاستعمار بالأرض والمكان حيث تشير هنا أيضا إلى ارتباط الكولونيالية بالمكان وكذلك الاستعمار.

[1] بيل إشكروفت وآخرون، المرجع السابق، ص205

[2] اسماعيل عبد الفتاح الكافي: الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية، د ط، دت، ص39

[3] آنيا لومبا: في نظرية الاستعمار ومابعد الاستعمار الأدبية، مرجع سابق، ص 18

فكلمة استعمار تشمل السلب، السيطرة والاستيطان بكل أنواعه وجميع أطرافه المختلفة، من الحروب الصليبي وغزو الغرب للشرق، والتي تعتبر جميعا ممارسات كولونيالية أو استعمارية، حيث يمكن القول من خلال هذا أنه وفي الإطار الكولونيالي هناك مهيمن مسيطر له نفوذ على الهامش(المستعمَر) بينهما علاقة استغلالية وإخضاعٌ مراد ولو بالقوة.

وتمتد هذه العلاقة إلى جميع المعاملات بين المستعمَر والمستعمر الاجتماعية منها والاقتصادية و السياسية، لأن فكرة الاستعمار في مجملها تقوم على السيادة و العنصرية ودائما مانجد أن الشعوب المستعمرة تفرض عليها قوانين و معاملات غير مطبقة في البلد الاستعماري كالقوانين التعليمية و التجنيد الإجباري لاستغلال الأفراد لمصالح عسكرية أو اقتصادية حيث: " تمتلك مفردة الاستعمار تاريخية متحولة فقد أصبحت ذات مدلول سياسي يشير إلى عملية ارتبطت بالتحرك الجيوسياسي لبعض القوى للسيطرة والهيمنة على مناطق أهلة، فالجغرافيا هنا مركزية في تملك هذه الكلمة لمفهومها، فالمكان هو الحيز الذي يتم وقوع السيطرة عليه و التملك و المصادرة."[1]

إن الاستعمار يقوم على عنصر المكان كأهم عنصر يقيمه إضافة إلى الفعل الاقتصادي الذي يقع هو والمكان تحت بند السلطة والسيطرة، وفيما يخص تداخل مصطلحي الكولونيالية والاستعمار تقول أمال علاوشيش:" وعن المفهوم الكولونيالي أو الاستعماري وهو المصطلح المتداول عموما في كتب التاريخ وذلك إلى اعتبار الثاني مقدمة أو مدخل الأول، هذا من جهة، ومن جهة أخرى تميزه عن مصطلح مابعد الاستقلال باعتباره الفترة التي أعقبت التخلص من الثاني،"[2] بمعنى أن الاستعمار هو بداية إرساء معالم الكولونيالية،

[1] رامي أبو شهاب: الرسيس و المخاتلة، خطاب مابعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ط1، 2013، ص46.

[2] أمال علاوشيش: مابعد الكولونيالية ضمن خطابات ما بعد الكولونيالية، مجموعة مؤلفين، ط1، 2013،ص43.

الأخيرة التي تتمثل في الهيمنة من أجل تحقيق غايات معينة ومصالح مرادة داخل المستعمرات.

ب: مابعد الكولونيالية/ مابعد الاستعمار:

تعد دراسات ما بعد الاستعمار أو النظرية ما بعد الكولونيالية من أهم النظريات التي رافقت مرحلة مابعد الحداثة، لا سيما أن هذه النظرية ظهرت بعد سيطرة البنيوية على الحقل الثقافي الغربي، ولم تعرف طريقها للوجود في مجال النظرية السياسية إلا في أواخر السبعينيات من القرن الماضي، وقبل الحديث عن دراسات مابعد الاستعمار أي تلك المرحلة التي تلت الاستقلال، فإن هذا المصطلح " يتضمن قطعية تاريخية دالة على نهاية الفصل الاستعماري، فإنه يعني أبعد من ذلك بكثير. فهو يغطي الكتابات المتعلقة بالتجربة الاستعمارية التي تستثني ذكر القوى المستعمرة نفسها."[1] انطلاقا من هذا يمكن القول إن: ما بعد الاستعمار أو الفترة التي تلت الاستقلال السياسي الذي حصلت عليه الدول التي كانت واقعة تحت وطأة الاستعمار، ليس هذا فقط وإنما ما تضمنته تلك المرحلة (فترة الاستعمار) من كتابات حول الفترة الاستعمارية، دون ذكر القوى الاستعمارية، كما حدد آلان لوسون ما بعد الكولونيالية" بأنها حركة تاريخية و تحليلية ذات باعث سياسي يتصارع مع الكولونيالية ويقاومها بهدف إبطالها على المستويات المادية، التاريخية الفكرية و السياسية"[2] .

إن أشارت كلمة الكولونيالية إلى الاستعمار فإنه من المؤكد أن تشير لفظة مابعد الكولونيالية إلى فترة ما بعد الاستعمار، حيث" يتناول مفهوم مابعد الكولونيالية آثار الاستعمار على الثقافات و المجتمعات، و المصطلح ما بعد الكولونيالية معنى تاريخي

[1] شيلي واليا: إدوارد سعيد و كتابة التاريخ،تر: أحمد خريس و ناصر أبو الهيجاء، أزمنة، الأردن ، ط1، عمان،2007، ص16

[2] نبيل راغب: موسوعة النظريات الأدبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط1، لونجمان، 2003، ص549

تسلسلي، إذ يشير إلى فترة مابعد الاستقلال "[1] أي أن تلك الفترة التي حصلت فيها المستعمرات على استقلالها هي مايطلق عليها فترة ما بعد الكولونيالية كما أنها تعتبر الدراسة الأكاديمية للإرث الثقافي للاستعمار، حيث تهتم بالتبعات البشرية جراء استغلال سكان المستعمرات الأصليين في أراضيهم، كما بني مصطلح ما بعد الكولونيالية على نمط مصطلح ما بعد الحداثة، كونهما يشتركان في عدد من المفاهيم و الرسائل فيمكننا أن نعتبر ما بعد الكولونيالية رد فعل للخروج من سلطة الاستعمار كما كان الحال مع الحداثة حيث جاءت عليها مابعدها (ما بعد الحداثة) كرد فعل عليها.

كما تسعى ما بعد الكولونيالية إلى " نقد الفرضيات التي تقوم عليها رؤى المركزية الأوروبية باعتبارها مصطلحا أطلق على كل الثقافات التي تأثرت بالوجود الإمبريالي ومجد صفة الإنكار لكل ما هو طرفي أو هامشي، و كانت البداية مع اللغة التي اعتبرت أداة للسلطة و تأسيس خطاب يلائم المكان المستعمر".[2]

كما يقصد بدراسة ما بعد الاستعمار أيضا أنها " الدراسات التي تبحث في العلاقات الثقافية بين الغرب بوصفه مستعمرا، و مايقع خارج الغرب من دول وقعت تحت طائلة الاستعمار، مع ما تتضمنه تلك الدراسات من تحليل للنصوص الأدبية و غيرها، للكشف عن استراتيجياتها الخطابية على النحو الذي يبرزه إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق والثقافة والإمبريالية."[3]، يوضح هذا المفهوم تلك العلاقة بين السلطة والمعرفة من خلال سيطرة أوروبا و هيمنتها عللى دول الشرق، ودور النصوص الأدبية في فضح الخطابات الغربية وعلاقة هذه النصوص بالدراسات ما بعد الكولونيالية.

---

[1] بيل إشكروفت و آخرون: دراسات ما بعد الكولونيالية، المفاهيم الرئيسية، مرجع سابق، ص282.283

[2] غزلان هاشمي: مابعد الكولونيالية من الهامش إلى المركز، مجلة دليل الكتاب، ديوان الكتاب للثقافة و النشر، ط1، 2010، www.anantrropos.com

[3] حفناوي بعلي: مسارات النقد و مدارات ما بعد الحداثة، أمانة عمان الكبرى، ط1، الأردن ، 2007، ص 142.

معنى ذلك أن مصطلح مابعد الكولونيالية تعددت استعمالاته، ففي البادىء خصص لدراسة التفاعل الثقافي في المجتمع ومن ثم اتسع مجال استخدامه ليشمل مختلف التجارب السياسية والثقافية.

2- الدراسات ما بعد الكولونيالية :

-آداب ما بعد الكولونيالية:

إن الأدب مادة مرنة لينة للتشكيل والشحن بمختلف الأفكار والإيديولوجيات، فاعتبر لذلك من أهم الوسائل التي سعت القوى الاستعمارية إلى استغلالها في إطار خططها لإخضاع العالم لمدى تأثيره بجل أنواعه على العالم عامة، حيث تم الانتباه إلى العلاقة بين الأدب والاستعمار وإعادة النظر بشكل جدي في هذين المصطلحين، استنادا إلى الدور الحيوي الذي يلعبه في كل من الخطابات الاستعمارية والمعادية للاستعمار.

لأنه جاء متوسطا لما هو حقيقي وما هو متخيل حيث تعتبر اللغة والإشارات موقع تداخل الإيديولوجيات التي تتصارع مع بعضها البعض، وبما أن النصوص الأدبية عناقيد معقدة من اللغات والإشارات فهي مواقع منتجة جدا لمثل هذه التفاعلات الايديولوجية"[1] وتضيف آنيا لومبا: "إن النصوص الأدبية تنتشر في المجتمع ليس بسبب ميزتها الداخلية فحسب، بل بأنها تشكل جزء من مؤسسات أخرى كالسوق أو النظام التربوي، ومن خلال هذه المؤسسات تلعبدورا هاما في بناء السلطة الثقافية للمستعمرين في كل من المستعمرات والعاصمة، بيد أن النصوص الأدبية لا تعكس ببسلطة الإيديولوجيات المهيمنة لكنها تحول التوترات والتعقيدات والفروقات الدقيقة داخل الثقافات الاستعمارية إلى رموز."[2] أي أن الخطاب الاستعماري لا ينحصرفي النصوص الأدبية فحسب بل يتجاوزها إلى كل أنواع الخطابات، كالصحافة و

[1] ينظر، آنيا لومبا: في نظرية الاستعمار و مابعد الاستعمار الأدبية، مرجع سابق، ص78

[2] آنيا لومبا: في نظرية الاستعمار و مابعد الاستعمار الأدبية، مرجع سابق، ص.98

الإعلام و التقارير الحكومية و الكتابات السياسية...إلخ، هذه تبرز الهيمنة وتجسدها في المجال الفكري والرمزي، كما تعتبر أن:" الأدب المكتوب من طرفي التقسيم الاستعماري غالبا ما يمتص و يستولي عليه، ويكتب أوجها من الثقافة الأخرى، ويخلق أنواعا أخرى أفكار وهويات أثناء التقدم. وأخيرا فإن الأدب أيضا وسيلة مهمة للاستيلاء على وسائل الهيمنة للتمثيل والإيديولوجيا الاستعمارية أو قلبها أو تحديها."[1]

فالأدب أصبح بهذا وسيلة ذو وظيفة هامة واستراتيجية مسطرة تحت قوانين معينة تسعى إلى إخضاع الثقافات والهيمنة عليها عبر انتاج المعارف المختلفة الأنواع والمتشعبة المواضيع و مراقبتها، " فقد كانت مؤسسة الأدب في المستعمرة تخضع لسيطرة مباشرة من الطبقة الحاكمة الإمبراطورية التي كانت وحدها تجيز الشكل المقبول، وتسمح بنشر و توزيع العمل الناتج ،"[2]حيث أن الادب الذي ينتجه سكان المستعمرات يخضع لرقابة استعمارية مشددة و محكمة خوفا من ممارسة ذلك الأدب لتأثيرات تزيد من وعي الشعوب المستعمرة بالوضع الي هي عليه فيكون بذلك قد ساهم في انتفاضهم بدل اخضاعهم، الأمر الأخير الذي تسعى إليه الدول الاستعمارية جميعا باختلاف مراحل وأماكن الاستعمار.

" أدب مابعد الكولونيالية شكل من أشكال النقد الثقافي و التحليل النقدي الثقافي، كما أنه منهج لتحرير مجتمعات بأسرها من شفرات المهيم التي ترتدي أقنعة، إلا أنه في حقيقة أمره نوع من الاشتباك الجدلي مع عملية انتاج المفهوم الثقافي التي تتم في إطار الهيمنة"[3] فهي خطاب نقدي يسعى إلى تخطي الآثار التي خلفها الاستعمار عللى الشعوب التي عانت منه وبالخصوص على الصعيد الثقافي و مواجهة القوى الاستعمارية التي قامت بتعريف وتحديد ماهية الدول المستعمرة وفقا لمنظومتها المعرفية و خدمة أهدافها الاستعمارية.

---

[1] ينظر، المرجع نفسه، ص79.

[2] بيل إشكروفت: الرد بالكتابة، المنظمة العربية للترجمة، ط1، لبنان، 2010، ص45.

[3] نبيل راغب: موسوعة النظريات الأدبية، مرجع سابق، ص551.

والأدب ما بعد كولونيالي هو إعادة قراءة للنصوص لكشف الإيديولوجيا الاستعمارية المقصودة و غير المقصودة، و لفضح حجم التعارض بين الدعاوى الحضارية للاستعمار و مبطناته الاستيطانية، " فهو ليس هجوما مباشرا و فجا على الأعمال الكولونيالبة بل إبداع يقف موقف الند منها بمسائلها و يراجعها حتى يحطم هالة الذات المصونة التي لا تمس، و التي تدثرت بها عبر العصور.

إن إعادة انتاج الشخصيات و صياغة السرد و تشكيل السياق، بل و فحص الجنس الأدبي المعتمد في ضوء جديد له بمثابة وسيلة لمساءلة و مراجعة الإرث الثقافي للامبريالية بصفة عامة"[1]، فقد تأسست الدراسات ما بعد الكولونيالية على دراسة الأدب بناءا على محتواه الثقافي كون هذه النصوص لا تنطوي على أبعاد سلبية فقط تتمثل في خلخلة السلطة السياسية و الثقافية، بل حتى الخطابات النسوية و الخطابات البنيوية التي تقوم على أساس عرقي لأنها تعتمد على صيغ أدبية و مناهج فكرية متشابهة.

يصبح النص كحقل معرفي يهتم بالكولونيالية من عدة جوانب و الاشتغال بقضايا العرق و الطبقة و الهوية و الجنوسة و التبعية، و تشكيل الامبراطوريات ليتجاوز بهذا بالشكل وظيفته الجمالية ف" الاتصال الاستعماري لا ينعكس فقط في اللغة أو الصور البيانية للنصوص الأدبية، فهو ليس ستارة خلفية فحسب أو سياقا تمثل أمامه المسرحيات الإنسانية، بل شكلا مركزا لما يجب أن تقوله هذه النصوص عن الهوية و العلاقات والثقافة."[2]

أما فيما يخص المجال الجغرافي الذي يشغله الأدب ما بعد كولونيالي فنجد أنه" تندرج تحت مصطلح ما بعد الكولونيالية آداب كل من البلدان الإفريقية و استراليا وبنغلاديش

[1] نبيل راغب: موسوعة النظريات الأدبية ، مرجع سابق، ص555.

[2] آنيا لومبا: في نظرية الاستعمار و مابعد الاستعمار الأدبية، مرجع سابق، ص81.

وكندا و بلدان منطقة الكاريبي و الهند و ماليزيا و مالطا و نيوزيلاندا وبالكستان وسنغافورة و بلدان خزر جنوب المحيط الهادي و سيريلانكا. "[1]هاته الدول التي خضعت للاستعمار البريطاني و الفرنسي و التي كانت آدابها فرانكفونية أو أنجلوفونية فكانت حينها اللغة الاستعمارية (انجليزية أو فرنسية) هي اللغة المسموح بالكتابة بها والمتاحة للاستخدام، انطلاقا من هنا طرح مشال فوكو و إدوارد سعيد فكرتهما فيقولان: " استحضار طرق معينة للتفكير حول اللغة و حول الحقيقة و حول السلطة و حول العلاقات المتبادلة بين الثلاثة. أما الحقيقة فهي مايمكن اعتباره صحيحا داخل نسق من القواعد لخطاب بعينه، و السلطة التي تقوم بالحاق الحقيقة و تحديدها و إثباتها و إنتاج الحقيقة هي وظيفة القوةو لايمكننا ممارسة السلطة إلا من خلال انتاج الحقيقة."[2]فاللغة هي منتجة المعرفة و عن طريقها تصل هذه المعرفة، بيد أن اللغة لا تنحصرفيما تبلغه بل يمكن أن تتجاوز ذلك لتصبح في خدمة السلطة، فتستعملها الأخيرة كونها (اللغة) تكون من عندها قاهرة للمعرفة إذ تتحكم في تشكيلها و توزيعها من خلال الخطاب و خاصة ضمن الخطابات ذات المعرفة الجاهزة و المدروسة مثل التي تنتجها المؤسسات الاستعمارية.

و يعرف قاموس اكسفورد للعلوم الاجتماعية خطاب ما بعد الكولونيالية كالتالي:

" نشأ خطاب مابعد الكولونيالية في أعمال جماعة دراسات التابع القائمة على التاريخ الهندي، متأثرين بأعمال الماركسية الانجليزية لتدوين التاريخ، و كانوا مهتمين بالتعبير عن المستعمرين(الذين وقع عليهم الاستعمار) أكثر من تبني وجهة نظر المستعمر(الذي قام بالاستعمار) و سلطتهم"[3]فالهدف هنا من هذا الخطاب هو الاطلاع على الفئة المهمشة

[1] بيل إشكروفت و آخرون: الرد بالكتابة، مرجع سابق، ص16.

[2] المرجع نفسه، ص 275.

[3] رامي أبو شهاب: الرسيس و المخاتلة، مرجع سابق، ص49–50.

وإيصال صرخة المضطهدين في خطاب هيمن عليه المستعمر لفترات طويلة، و التركيز على تداعيات الاستعمار على الثقافة و المجتمع بعد الاستقلال.

- **رواداها:**

شاع صيت نظرية مابعد الكولونيالية بعدما نقلها الأدباء والنقاد من دول العالم الثالث الذين هاجروا نحو الدول الأخرى، وذلك بوصفهم منتمين إلى هويات حضارية مختلفةومدارس فكرية متنوعة، ما مكنهم من الممارسة النقدية على نصوص وقف نظرية مابعد الكولونيالية من خلال تحليل الخطابات السائدة وإعادة كتابتها في خطاب مضاد للغرب، إذ ثمة كوكب من المثقفين والأدباء والنقاد الذين يمثلون نظرية مابعد الاستعمار.

ومن بينهم ادوارد سعيد بالنسبة للعرب، وفرانز فانون بالنسبة للغرب .

-إدوارد سعيد :

كاتب فلسطيني من أشهر الكتاب العرب، حيث تفنن في دراسته للنصوص وفق نظرية مابعد الكولونيالية ونلمس هذا في في أشهر كتبه تحت عنوان " الاستشراق " وكذلك كتابه " الثقافة والأمبريالية " حيث ييجسد معالم ،وأبعاد نظرية مابعد الكولونيالية حيث يركز في نقده على ماهو أكبر من التحليل النظري " الذي يوضح فهم الايديولوجيا وراء كتابه التاريخ واستخدام النقد الملموس في القبض على نمط الانتاج الأدبي"[1]تقصى ادوارد سعيد كل معالم الهيمنة الاستعمارية وقام بهدمها وتفكيكها حيث يظهر هذا بكل وضوح في كتابه الاستشراق بكل شفافية ووضوح، إذ نلمس تقصيه الى أبعاد معالم الهيمنة الاستعمارية من حيث تفكيك الخطابات الاستعمارية التى تهدف الى فرض سيطرتها وهيمنتها على دول العالم الثالث بمختلف الطرق والوسائل من أجل تهميش شعوب العالم الثالث والاستلاء على كل

[1] والياتيلي صدام: ما بعد الحداثة ادوارد سعيد وتدوين التاريخ ، تر: عفاف عبد المعطي ، رؤية للانتاج والتوزيع ،دط، القاهرة ،2006،ص 88.

خيراتها. لخدمة مصالحهم الخاصة، ومن أهم القضايا التى طرحها إدوارد سعيد كيفية تشكيل الأمم معرفيا من خلال السرديات .

"ومن الآن يظهر الشرقيون والعرب سذجا غافلين محرومين من الحيوية والقدرة على المبادرة مجبورين على حب الاطراء الباذخ والدسيسة والقسوة على الحيوانات ...وهم في كل شئ على طرف نقيض من العرق الأنجلو ...في وضوحه ومباشرته ونبله."[1] كعينة من هدم الآخر بطريقة احترافية استطاع من خلالها إزالة قناع المستعار للاستعمار المستبد الذي يصف الشرق بالسذاجة والتخلف حيث يعتبرها شعوبا همجية يمكن استغلالها بكل بساطة وأداتهم في نهش هذه الشعوب المستضعفة حيث " نافذة الآخر على العوالم "المشرقي " والقراءة الغربية لمنتجه ووضعه عبر الأزمنة المختلفة وبأدواته ، وميولاته ،وأغراضه وخلفياته ومقاصده من فتح هذه النوافذ ،هو الفعل الذي احتاج الى فعل معاكس إن صحت تسميته ب" الاستغراب " وهو لم يكن في مستوى فعل " الغربي" على المنتج "الشرقي " فعسى يكون محاولة الاستجلاء صورة الآخر في منتجه ثم صورته في المنتج العربي، على تنوع العينات المدروسة بين الأدب والفكر والعلوم المختلفة "[2]

يمكننا القول أن كتاب " الاستشراق " استطاع مواجهة هجومات الغرب وطعن الصورة النمطية التي ينسبها في حق الأنا ، استطاع النقد بطريقة أدبية رائعة حيث فتح المجال لكشف الصورة الحقيقية للعالم الغربي المستبد والإطاحة بأفكاره الكولونيالية المعتمدة في نشر سلطته وهيمنته على دول العالم الثالث المستضعفة .

الثقافة والامبريالية عند دوارد سعيد :

[1] ادوارد سعيد: الاستشراق (مفاهيم الغربية للشرق)، تر: محمد عناني ، رؤية للنشر والتوزيع ، ط1،القاهرة ،2006،ص 18-82.

[2] خيري منصور: "الاستشراق والوعي السالب " المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،ط1،بيروت ،2001،ص 12.

يعتبر هذا الكتاب امتدادا لكتاب " الاستشراق " حيث أعاد فيه ادوارد سعيد العديد من الأطروحات والأفكار ويظهر في الكثير من تصريحات العديد من النقاد أنه الوجهه الثاني في رؤى الكاتب، حيث أعطى اهتمام كبير للعلاقات الجدلية بين الثقافة والتاريخ والامبريالية؛ وذلك تمكن من تناول العديد من المناطق الجغرافية تتجاوز الشرق، أي العالم الإسلامي والشرق " إنها الكتابات الأوروبية عن أفريقيا والهند وبعض مناطق الشرق الاقصى واستراليا وجزر الكاريبي، أنني لأعتبر هذه الإنشاءت الإفريقية والهندية يسمى بعضها جزءا من مجمل الجهود الأوربية الحكم بلدان وشعوب نائية ، واعتبرها لذلك مترابطة مع الأوصاف الاستشراقية للعالم الاسلامي."[1]من خلال قول إدوارد أن كل مايخص الانشاءات الافريقية والهندية والخطابات لاتختلف في مضمونها وفي إيديولوجياتها عن الخطاب الاستشراقي و يمكن تجسيدها في الذات والآخر، وهذه الثنائية ركيزة أساسية لنظرية مابعد الكولونيالية حيث أنها تولي عناية تامة للثنائيات الضدية "المركز" ،" والهامش"، "الأنا "و" الآخر" موجودة في جميع النصوص الخطابات الاستعمارية.

2- فرانز فانون (1925-1961):

يعتبر الأب الروحي لنظرية مابعد الكولونيالية ،من أشهر أعماله " المعذب والأرض " وكتاب " بشرة سوداء وأقنعة بيضاء " حيث استطاع فانون أن يرسم طريقا خاصا به في المجال الأدبي والنقدي والنفسي ، وذلك ما مكنه من تأسيس اتجاه متميز يطلق عليه " الفانونية " حيث وصفت بكونها " نظرية العالم الثالث، يقول جون بول سارتر: " حيث كتب مقدمة " معذبون في الأرض " أن " فانون " أول من أعاد بعد " انجليز " اكتشاف دور العنف في التاريخ والواقع أنه إذا كان انجليز قد رأي في العنف قابلية التاريخ فإن فانون رأى فيه وسيلة للتطهير في المقام الأول، وذلك أن العالم الكولونيالي هو جوهره عالم ملوث ،

[1] المرجع نفسه، ص 40..

ومالوثه هو الاستعمار، والعنف هو أداة لتطهير ذاته ولإعادة بنائها كإنسان جديد يرى من طاعون الهجانة التي هي السمة الأكثر تميزا للمجتمعات الكولونيالية ."[1] يعتبر فانون أن العنف أهم نقطة اعتمد عليها في تسليطه الضوء في الدراسة مابعد الكولونيالية ، حيث أن العنف وسيلة للتطهير من عالم الاستعماري باعتباره عالما مستبدا وملوثا بدماء الابرياء ومن خلاله يمكن تطهير الذات من أجل بناء ذات جديدة مستقلة عن عالم كولونيالي ، ذات شخصية مستقلة بعيدة كل البعد عن ذلك الانسان المستعمر، تم الارتقاء ب " فرانر فانون "إلى مصاف "بني العالم الثالث حيث " نظر لأعماله عن سيكولوجية الاستعمار ،ومقاومته وهي الأعمال التى ارتكزت على دور اللغات الاستعمارية ، في بناء العقل المستعمر ولا تزال أعماله مقروءة ومؤثرة وقد كان له تأثير على الأجيال السابقة في ثورات العالم الثالث، أبان الكفاح من أجل الاستقلال والتحرير الوطني في الخمسينات والستينات ."[2]

يرى فرانز فانون أن المستعمر ينظر للمستعمَر نظرة استعلاء واستحقار، خاصة بالنسبة للمستعمرات الإفريقية، وفي هذا المقام يقول " كانت تلك القارة المترامية الأطراف في نظر المستعمر مأوى للمتوحشين، موطنا يحفل بالهرطقة والأباطيل ومكرسا للازدراء الكبير للعنة الربانية وموطنا لآكلي لحوم البشر وموطنا للزنوج"[3]ومن هنا ظهرت الحركات الزنجية لمواجهة بطش الاستعمار وعنصريتهم في حق شعوب القارة السمراء، وهذه الحركة معروفة بالزنجية في إفريقيا حيث تمكنت من تأسيس هوية ثقافية خاصة بها

[1] جورج طرابشي : عدوى ماتبقى من القانونية ؟ ، مجلة حوار ، ع 9 ،بيروت ، لبنان ،1988، ص43–44.

[2]خيري دومة ، عدوى الرحيل " موسم الهجرة الى الشمال ونظرية مابعد الاستعمار "، من الموقع -www.ibm ruhd.org.adwa-ai-

[3] جميل حمدواي، نظريات النقد الأدبي في مرحلة مابعد الحداثة ، مؤسسة المثقف العربي، د ط ،2010، ص 325.

يقول ليوبولد سينغور: "خلاصة القيم الثقافية للعالم الأسود ."[1] من خلال القول يظهر لنا أن الحركة الزنجية استطاعت إرساء معالمها عن طريق، ثقافتها الوطنية وهي التي تجسد القيم الثقافية للقارة الافريقية المضادة للمستعمر المستبد.

كما ارتبط اسم فانون من خلال أعماله الأساسية بالعنصرية والهيمنة الكولونيالية، والتحليل السيكولوجي للمستعمر وآثاره السلبية على المستعمَر خاصة في أعماله حيث يقول بيل إشكروفت في: " ففي النصوص يلملم فانون أطراف الاستبصارات التي استمدها من دراسته الإكلينكية لآثار الهيمنة الكولونيالية على نفسية المستعمَر وتحليله الماركسي للسيطرة الاقتصادية والاجتماعية."[2] يظهر بوضوح اهتمام فانون بالجانب النفسي للمستعمَر كما درس المجتمع من المنظور الماركسي، حيث أن المجتمع هو المرآة العاكسة للواقع المعاش من خلال طبقتين: الطبقة التحتية تمثل المجتمع والواقع الاقتصادي الراهن والطبقة الفوقية التي تمثل عالم الأفكار (الأدب)، ففي كتابه "بشرة سوداء وأقنعة بيضاء" اهتم بدراسة نفسية المستضعفين تحت وطأة الاستعمار والممارسات العنصرية، وعليه نجد أن فرانز فانون قد اهتم في أعماله بالجانب النفسي لأصحاب المستعمرات كذلك برز موقفه المناهض للاستعمار كناشط مؤيد لحركات التحرر.

[1] ك.نلوولوف وآخرون ، موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي القرن العشرين المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية ،تر: اسماعيل عبد الغني وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، ج9،، ط1، 2005، ص 347.

[2] بيل إشكروفت وآخرونن دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسة، مرجع سابق ،ص 175.

3- مابعد الكولونيالية كاستراتيجية قراءة:

أ- جدلية الأنا و الآخر:Dialectique du moi et l'autre

ترتكز مابعد الكولونيالية في دراستها على العلاقة الجدلية بين الأنا والآخر بغية فهم العلاقة التفاعلية بين طرفي المعادلة، أهي علاقة إيجابية قائمة على التعاون والتعايش السلمي أم أنها علاقة عدائية تقوم على الصراع والاقصاء والتهميش.

تقوم العلاقة الانسانية على التفاعل أفرادا وشعوبا في مسارها الطبيعي لكن يتغير هذا المفهوم بتغير نظرة االفرد للآخر. هذا التغير قد يحكمه مصالح ومبررات لا أخلاقية تجعل الفرد يلغي الطرف الآخر، لكن مهما كانت دواعي العلاقة القائمة بين الأنا والآخر سواء كانت عدائية أو متسامحة " فالأنا لايتحدد إلا عبر الآخر سواء تعلق الأمر بالفرد أو بالجماعة، فإن أي مشروع للمستقبل يبنيه الانسان لنفسه لابد أن يأخذ بعين الاعتبار بصورة واعية ولا واعية فعل الآخر أو رد فعله آخر اليوم ، وآخر الغد ، ذلك إذ كان الانسان اجتماعيا بطبعه كما يقولون فإن مستقبله مثل حاضره مشتركا بطبيعته "[1]

نلمس أن هناك علاقة وطيدة وخالدة بين الأنا والآخر، فلا يمكن أن يوجد هناك كيان دون غيره، فالأول يبرز الثاني ويحدده ونفس الشيء مع الثاني الذي بدوره يبرز الأول وويرسم معالمه، فيتحددان من خلال بعضيهما و يتجسدان بمقابلة أحدهما للآخر "جدلية الذات والآخر تعني في الحالات كلها أنه يستحيل وجود واحد منهما دون وجود الآخر ، أو معرفة واحد منهما دون معرفة الآخر حتى أصبح كل من هذه الثنائية عاملا لمعرفة الآخر، فهما ذاتان منفصلتان وفي الوقت نفسه منفصلتان ومتحدتان ،حيث غدت العلاقة الجدلية

[1] محمد عبد الرحمان الجابري ،مسألة الهوية والعروبة والاسلام والغرب ، مركز الدراسات القحدة العربية ،سلسلة الثقافة القومية 27، قضايا العربي 3، بيروت ،2012.

بينهما جزء من كل منهما وشرطا لوجوده واستمراره".[1] نفس الأمر هنا ونفس الفكرة التي مفادها أنه لا يمكن فصل الأنا عن الآخر و لا الآخر عن الأنا، حيث يمثل كل منهما مرآة الآخر فيظهر من خلاله و يعرف قوامه.

- **مفهوم الأنا:**

تعرف الأنا بالذات حسب اللغة المعجمية العربية المعاصرة بأنه: " اسم يدل على محسوس مثل باب وحجر وبحر مقابل اسم المعى مثل علم وشجاعة "[2] أي أنها تدل على كل ماهو موجود ذو كيان حيث أن الانا أو الذات هي ادراك الفرد بوجوده ، وهي بذلك ترادف الهوية كما تعتبر من المفاهيم الفلسفية عند رنيه ديكارت بما يعرف بالكو جيتو الديكاري بمقولته المشهورة " انا أفكر أذن أنا موجود " لأن الذات المفكرة هي الذات الموجودة، لها ماهيتها ولها كيانها في الوجود من خلال إدراكها للعالم الخارجي من خلال الفكر وعملياته الذهنية كما لها القدرة على إدراك عالمها الداخلي من خلال تأصيل مايختلج أفكاره ومشاعره .

أما عند آندري لالاند فنجده يعرف الذات أو الأنا بقوله :" وعي الفرد التجربة ان أناه (أنا التمثال) هو أن الوعي ماهو عليه وذكرى ماكان عليه ، فليس أناه سوى مجموعة أحاسيسه التي يشعر بها وتلك التي تذكره بها الذاكرة "[3].نجد لالاند يعني في قوله أن الانا هي مجموع التجارب التى عاشها الفرد آنفا أو يعيشها حاضرا ليتجسد بذلك كيانه وهويته.

ويضيف آندريه في نفس السياق قائلا: " للأنا صفتان فهو ظالم بذاته من حيث أنه يضع ذاته ضد الكلن و هو متنافر مع الآخرين من حيث أنه يرغب في استبعادهم لأن كل

[1] وليد خالد أحمد ، الاخر في الثقافة العربية من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين ،كتابات الخميس ،4ادار ،2013،ص02.

[2]أحمد عمر مختار ،معجم اللغة العربية ، عالم الكتب ، القاهرة ،ج 1،ط2008،1.ص 801.

[3]اندريه لالاند : موسوعة الفلسفية ،تر : خليل أحمد خليل ، منشورات عويدات ،بيروت ، ط2، 2001، ص 824.

أنا هو العدو، ويريد أن يكون المستبد بكل الاخرين ".[1] بمعنى أن طبيعة الأنا أنانية وعدائية تحب ذاتها وترغب في السيطرة على جميع ماحولها، إن مفهومها عند لالاند هنا قائم على السيطرة التامة للذات و رغبتها في أن تكون ذات السلطان اللامتناهي،

- مفهوم الآخر:

الآخر و بطبيعة الحال هو كل ما خرج عن الذات و تغرب عنها، فيشكل بذلك نقيضا لها. ف" الآخر في أبسط صوره مثيل أو نقيض الذات أو الأنا، فكل ما لا يشير إلى الذات أو الأنا هو الآخر، المختلف في الجنس أو الانتماء أو الدين أو العرق"[2] بمعنى أن هوية الآخر تتحدد من خلال طبيعته الجنسية ساء ذكرا كان أو أنثى و كذلك انتماؤه الجغرافي أو القومي(شرقي/ غربي) أو عقائدي(مسلم/ مسيحي)، ضف إلى ذلك إشارة الآخر في عمومه إلى أي شخص مميز عن الذات و وجود الآخرين أمر ضروري لتعريف ما هو عادي و تحديد موقع المرء من العالم."[3] إذن يشترط في وجود الأنا والآخر توفر اختلاف بينهما و تمايز يفرق بينهما، الأخير الذي يسهل عملية التعرف على كل منهما، لم يتضح مفهوم الآخر بشكل جلي إلا مع تطور المعارف الحديثة و فلسفة التأويل و التواصل، فتعددت التعريفات و تشبعت الرؤى الساعية إلى تحديد ماهية الآخر حيث يرى بول ريكور: " أن الحياة السعيدة لا تكون إلا مع الآخر و من أجله في مؤسسات عادلة"[4] بمعنى أنه لا يمكن للأنا العيش بمعزل عن الآخر و الانغلاق عنه لأن كيانه من أجل أن يظهر لا بد من ملازمة الآخر له في جل مواقفه.

---

[1] أندريه لالاند، مرجع سابق، ص 842.

[2] ميجان الرويلي و سعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2002، ص21

[3] ماجدة حمود، إشكالية الأنا و الآخر، عالم المعرفة، الكويت، ع398، مارس 2013،ص17.

[4] بول ريكور، الذات عينها كآخر، تر: جورج زيناتي، مركز الدراسات الوحدة العربية ،ط1، 2005، ص345

فالإنسان اجتماعي بطبعه، و لا يمكن أن يعيش بمعزل عن الآخرين، لأنه يتفاعل ويتواصل و يتعامل مع الآخر ليستمر و هذا ما قال به عالم الاجتماع ابن خلدون، نقصد بها إلى جانب الأنا / الذات لا بد من وجود الآخر لا محالة. فالذات لا يمكن أن تعرف نفسها إلا من خلال تعرفها على الآخر، فالآخر بالنسبة لها هو معالم الانقطاع، لأنه مختلف عنها و بالتالي لا ينتمي إلى نظامها أيا كان"[1] الأمر الذي أكده جاك لاكان حين وصف الآخر بأنه: " بنية رمزية و شعورية تساعد الأنا، أو الذات على تحقيق وجودها أو كينونتها ضمن علاقة جدلية كما يمكننا تحديد دلالاته (الآخر) من خلال سياقين:

الأول: معرفي و على ضوئه يبدو الآخر مفهوما تكوينيا أساسيا للهوية أي للذات، وهي تحدد هويتها فلا هوية دون الآخر.

فمن خلال اختلاف الأنا أو الذات عن الآخر دينيا، لغويا، ثقافيا، عقائديا و عرقيا تكون الهوية، الأخيرة التي تختلف بدورها عن هويته.

أما السياق الثاني: فهو سياق قيمي أخلاقي يكسب الآخر من خلاله قيمة أو موقعا في سلم تراتبي يكون يكون من خلاله مقبولا أو مرفوضا طيبا أو سيئا."[2] فهذين السياقين اللذين يحددان دلالات الآخر يجتمعان غالبا أو في بعض الأحيان لتكوين و تحديد الهوية، والتي هي جزء من موقف قيمي أو أخلاقي.

وعليه نستنتج أن الأنا/ الذات و الآخر هما وجهين لعملة واحدة لا يمكن الفصل بينهما، فكل منهم يهدف إلى تحقيق و إثبات وجوده و كينونته على حساب الأخر.

[1] سامي الوافي، المثاقفة النقدية و سؤال الهوية: تفاعل الذات بالآخر، مجلة الآداب، ع2، 2014،جامعة الملك سعود، الرياض ، ص4.

[2] سامي الوافي: المثاقفة النقدية و سؤال الهوية: تفاعل الذات بالآخر، مرجع سابق، ص07.

الفصل الأول:

الشخصيات في إطارها المكاني

الفصل الأول: الشخصيات في إطارها الزمكاني

أولا: الفضاء المكاني

يمثل يونس الشخصية المحورية في النص في تحديد معالم الفضاء المكاني الذي يتواجد فيه بداية من الريف الذي عاش فيه طفولة بائسة وصولا إلى المدينة الكولونيا لية ريو صالادو بشخصية جوناس وفيما يلي سنتطرق لتوضيح تمظهر الفضاء المكاني.

1-الريف: ترعرع يونس في الريف حيث عاش وسط أسرة بدوية فقيرة مهمشة تحارب للبقاء على قيد الحياة تصارع الفقر والديون بيد رجل فلاح يعتمد على زراعة أرضه للخروج من محنته لكن والد يونس فشل وتحطمت أحلامه عندما التهمت النيران المحصول فوقعت الكارثة التي غيرت مجري حياة يونس خاصة وأسرته عامة يقول يونس: " ركضت نحو الحوش، فرأيت هديرا من النيران الهائجة تلتهم حقولنا، تصاعدت أنوارها إلى الذروة الخالية من أية نجمة حارسة "[1]، اندثرت أحلام عيسى مع اندثار رماد المحصول في الهواء، ووقعت الكارثة التي غيرت مجرى حياة العائلة عامة ويونس خاصة، حيث اضطر والد يونس للهجرة من الريف نحو المدينة .

2-جنان جاتو: مكان على الهامش ممزق ومعزول عن أدنى شروط الحياة الكريمة. هذا الفضاء احتوى يونس وعائلته الكادحة بعد نزوحهم من الريف، يصف المكان على فيقول: " جنان جاتو مزبلة من الأكواخ والأجمات المتنوعة، الغاصة بالعربات المفككة والمتسولين والباعة المتجولين والحمارين المتخاصمين مع بهائمهم وحاملي المياه والمشعوذين والأطفال بسروال رثة، أدغال صلصالية محروقة، معبأة بالغبار العفن .....هذه الأماكن العصية الوصف، يتجاوز البؤس جميع التصورات"[2]

[1] ياسمينة خضرة، فضل الليل على النهار، تر: محمد ساري، وزارة الثقافة، 2008، ص30.

[2] الرواية، ص19.18.

مكان يمثل صورة حقيقية للفقر والجهل والتشرد وصورة المستعمر المستبد، الذي يسلط ظلمه على أهالي نزعت منهم أراضيهم وسلبت منهم حريتهم، لوضعهم في مستنقع عفن لمواجهة مصيرهم بالذل و الإهانة .

3- الحوش : الفضاء الخاص، وهو المكان الذي استقر فيه يونس وعائلته حيث أنه مكان يجسد صورة مصغرة عن جنان جاتو بحيث (الحوش)جزء من الكل (جنان جاتو) فيقول يونس: " يتشكل المكان من فناء داخلي صغير ، تحيطه من جميع الجهات غرف منفصلة تتكدس بداخلها عائلات منهكة فرت من الجوع والتيفوس اللذين يتسيدان في المناطق الريفية"[1].

أما غرفة عائلة يونس فهي عبارة عن قبو لا يصلح لعيش الجرذان، وصفه يونس بقوله: " غرفة عارية وبلا نافذة، أكبر بقليل من حجم قبر ولا تقل عنه كآبة. تنبعث منها روائح بول القطط والدجاج العفن والقيء، الجدران سوداء وتسيل رطوبة، وحدها المعجزة أبقتها واقفة، وفوق الأرضية افترشت طبقة سميكة من البراز وبعر الجرذان."[22]

الفضاء المكاني للغرفة يوضح مدى انعدام أبسط مرافق الحياة الكريمة، فلا يمكن تحمل العيش وسط جدران غرفة هشة توشك على السقوط بدون نافذة و مليئة بالأوساخ.إلا وكان هذا دليلا على حجم الجحيم الذي سلطه المستعمر الفرنسي على الأهالي الضعفاء الذين هربوا من الجوع والأمراض المنتشرة في حقبة الاستعمارإلى جنان جاتو. يقول يونس: " كل يوم تلتقي النساء حول البئر ويقضين معظم الوقت في الحفر في الماضي مثلما يحرك سكين داخل جرح يتحدثن عن بساتينهن المسلوبة، عن هضابهن الخضراء المفقودة إلى الأبد عن الأقرباء المتروكين هناك، في بلد جميع المصائب حينئذ تذبل الوجوه حزنا وترتج الاصوات. "[33]

---

[1] الرواية، ص .19

[2] الرواية ، ص 19.

[3] الرواية ،ص 24.

اغتصب المستعمر الأراضي وسلب حرية الأهالي و سرق براءة الأطفال وحطم حلم النساء، و جعل الأهالي تعيش حياة الفقر والجهل وتتجرع مرارة الذل حيث حرمهم من الانتماء إلى وطنهم الأصلي ومنعهم من ممارسة ديانتهم ومعتقداتهم و أطاح بمعالم هويتهم كذلك عمل على تمزيق رايتهم الجزائرية من أجل خدمة مصالح الآخر واستغلال ثروات وخيرات الأنا والإطاحة بها.

4- وهران المدينة الأوربية (المركز): فضاء مكاني بامتياز نظيفة الشوارع ذات منازل صلبة بسياجات حديدية مزينة الأرصفة بالأشجار وحدائق متناثرة في جميع الضواحي " يقطن عمي في المدينة الأوربية، عند نهاية زقاق معبد بالإسفلت، تحيطه منازل صلبة أنيقة وهادئة، بسياجات من الحديد المطرق والنوافذ بمصرعين خشبيين كان زقاق جميلا بأرصفة نظيفة، مزينة بأشجار تين مشذبه بعناية في اماكن متفرقة توجد مقاعد يجلس عليها الشيوخ ليتسلوا بمرور الوقت ."[1]

مدينة وهران تختلف اختلافا تاما عن جنان جاتو كاختلاف الضوء عن الظلام، مدينة نظيفة وجميلة ترسم معالم الحياة الكريمة التي يعيشها الأهالي وهذا دليل على أنها مدينة كولونيالية يسكنها الفرنسيين ويردف في ذلك يونس فيقول:" يركض الأطفال في الحديقة العمومية لا يرتدون أسمال أطفال جنان وليست لهم ملامح حتمية على وجوهم الجميلة المرحة .....تسود في الحي سكينة التصدق لا تسمع في الحي الا قهقهات الأطفال وزقزقة العصافير[2].

5-البيت: هو الفضاء المكاني الخاص بعائلة ماحي، بيت جميل وواسع يحوي على العديد من الغرف الواسعة مرتبة بالأثاث والستائر الجميلة على النوافذ على حد تعبير جوناس: " تتدلى الستائر من جهتي النوافذ ذات الزجاج النظيف والمشاريع الخشبية المدهونة بالأخضر كان منزلا جميلا مشمسا ،بدا لي في البداية متاهيا بأروقته وأبوابه المتوارية وأدراج سلالمه

[1] الرواية ،ص 50.

[2] الرواية ،ص 50.

الملولبة وخزائنه الحائطية التي خلتها غرفا".[1] يعطي الفضاء المكاني الذي انتقل إليه يونس للعيش مع عمه وزوجته الفرنسية جرمان منحنى أولي في بناء شخصية الفتى، من يونس الجزائري إلى جوناس الفرنسي ما أدى به إلى أزمة هوية حتمية، قالت جيرمان :

"–جوناس ...جوناس لتتعرف كم أنا سعيدة

–حديثه بالعربية لم يدخل المدرسة بعد.

–هذا ليس مشكلا سنتدارك الأمربسرعة. "[2]

يوضح النص أزمة الهوية و الانتماء التي سيعيشها البطل بداية بتأثيث فضاء الغرفة، كمحطة أولى في تشكل شخصية جوناس من حيث أغراض الغرفة التي تحتضنه في كنف معالم ثقافية ودينية تمثل الهوية والثقافة الفرنسية مثل التمثال النحاسي و الصليب، ما يقول فيه جوناس:

" غرفتي تقع في عمق رواق، أكبر مرتين من تلك التي كنت أتقاسمها مع عائلتي في جنان جاتو، يحتل سرير كبير الوسط ،.....لوحات معلقة على الجدران، يصور بعضها مناظر رائعة وعلى بعضها الآخر أشخاص في وضعيات خشوع .....يوجد تمثال نحاسي لطفل بجناحين يقف على دكة مربعة الشكل يعلوه صليب."[3]

6–**المدرسة:** تعد الفضاء العام ، حيث التحق جوناس بالمدرسة الفرنسية وتعلم ضمنها ابتداء من السنة الثانية فيقول: " في المدرسة، استوت لي الأمور ابتداء من السنة الثانية نجحت في الذوبان بين الصفوف، صحيح أن الأطفال الروميين كانو غرباء نوعا ما، "[4]

وعليه يمكننا القول إن الفضاء المكان الذي ترعرع فيه سواء حياته في بيت عمه زوجته الفرنسية أو مدرسته الغربية قد خلق للبطل ازدواجية في الهوية، بين يونس الفتى الجزائري و

[1] الرواية ,ص 52.

[2] الرواية ،ص 51.

[3] الرواية ،ص 53.

[4] الرواية ، ص 65.

جوناس الفتى الفرنسي؛ ولايفوتنا الذكر أيضا الأثر الكبير من قبل عمه الجزائري المتزوج بفرنسية وبالرغم من ذلك محافظته على هويته وانتمائه لوطنه الجزائر كما أنه متشبع بالثقافة العربية الإسلامية والروح الوطنية الجزائرية، ضف لذلك انخراطه في صفوف الحركة الوطنية و مشاركته في النقاشات السرية التي يحتضنها في منزله: " أسمع عمي يستخدم منزلته كصاحب المكان كي يصالح بين الأمزجة ويقرب بين الأقطاب المتناطحة. "[1] منزل عم جوناس فضاء مكاني اختلطت فيه الهويات من جهة وتوافقت من جهة أخرى بين كل من الأنا والآخر حيث يقول جوناس: " يتعلق الأمر بضيف شرف الضيف المبجل إلا بعد مرور وقت وأنا أقرأ مجلة سياسية مصالي الحاج، أحد الوجوه الرائدة للحركة الوطنية الجزائرية ."[2] وهذا دليل على محافظة الأنا على هويتها الوطنية بالرغم من تعايشها مع الآخر (زوجته جيرمان والمجتمع الفرنسي)، إلا أن حادثة إلقاء القبض عليه وتعرضه للتعذيب في السجن أفقدته كيانه وثقته في نفسه وحولته إلى رجل محطم يعيش الحزن والكآبة والخوف معا، ما اضطره إلى الانتقال من وهران نحو ريو صالادو .

7-"ريو صالادو":

أ- **الفضاء العام:** المدينة الكولونيالية الصغيرة في جنوب وهران، قرية جميلة بمنازل فخمة تحوي على بساط مبلط ليس بعيد عن مدخل البلدية يحيط بها النخيل المتعانقة، ريو صالادو مكان يجمع الجمال العمراني والطبيعة الساحرة على نحو وصف جوناس: " قرية استعمارية رائعة ،بأزقتها المخضوضرة والمنازل الفاخرة "[3] في زمن مضى كانت عبارة عن أرخبيل وأراضي واعرة التضاريس تجولها الضباع والخنازير فحلت بها المعجزة عندما استوطنها متسكعون مهمشون أغلبهم من الإسبانيين الكولون.

[1] الرواية ، ص 75.

[2] الرواية ، ص 76.

[3] الرواية ،ص 85.

الكولون الذي حولها إلى جنة فوق الأرض وروضها كما تروض الخيول فجعلها غابات كروم دالية خلقت ريو صالادو جديدة من رحم الجحيم، وصفه يونس فقال:" إقليم من الأدغال والأودية الجافة ، حيث تتجول فيها الخنازير والضباع بلا منازع ....حط الرحال على أرضها الحدباء متسكعون مهمشون أغلبهم من الأسبان شمروا على سواعدهم وباشروا في ترويض السهول المتوحشة"[1].

يمكننا القول إن ريو صالادو فضاء عمراني، طبيعي و ثقافي تنظم في ساحاته الحفلات الراقصة ويغني فيها أشهر الفرق الموسيقية المشهورة أمثال إيمي باريلي وكسافيي كوغا و جاك إيليان ...الخ.

حيث يقول "جاك إيليان ، بيراز برادو...أسماء وفرق أسطورية لم تتمكن وهران، من بأناقتها وشهرتها كعاصمة للغرب من استقدامها "[2] حيث يرى عم جوناس أن ريو صالادو مكان مناسب لإعادة بناء حياة جديدة، كما يرى جوناس أنها مكان أستطاع من خلاله استرجاع معالمه القديمة التي عاشها بين الحقول ورائحة الحرث فيقول: " ولدت من جديد في ثوب قروي ....إذا كانت المدينة وهما ، فإن الريف انفعال متنام باستمرار".[3] وقع جوناس في غرام ريو صالادو بمناظرها الخلابة ويراها بلد نعمة لدرجة " يقسم المرء أن الآلهة والعفاريت عثروا في هذه الأماكن عن سكينتهم."[4]

تختلف ريو صالادو عن وهران فوهران رغم جمال وجهها إلا أن هناك وجها مغايرا لها خلف شوارعها النظيفة والمباني الجميلة، فهناك وراء ذلك الوجه الجميل أكواخ قذرة، فوضى لا متناهية تعج أركانها بالقمار.

[1] الرواية ،ص 85.

[2] الرواية ،ص 85.

[3] الرواية ،ص 86 .

[4] الرواية ، ص 86.

تستقطب فئات اجتماعية منحطة وخيما للبدو متفرقة في كل مكان، نهشها الفقر وانتشرت حولها الزرائب والحيوانات،إنه جنان جاتو الذي يعبر عن طفولة يونس البائسة حيث نلمس هنا تباينا بين الفضاءات المكانية السابق ذكرها (جنان جاتو ، وهران ، ريو صالادو) التي من خلالها يمر يونس بمراحل متفرقة منذ طفولته في حقبة الاستعمار وصولا إلي شيخوخته بعد الاستقلال.

ب:الفضاء الخاص: المنزل": منزل كبير وجميل يحتوي على طابق أرضي يحوي صيدلية، أما الطابق العلوي ينفتح على صالون شاسع تحيط حولها ثلاث غرف كبيرة وحمام مبلط. في هذا المنزل عاش يونس الجزائري بانتمائه العرقي و جوناس الفرنسي بانتمائه الثقافي.

يقول جوناس: " يرتفع منزلنا على الجانب الشرقي للقرية، مرصع بحديقة رائعة وشرفة تفتح على البحر من الكروم؛ كان منزلا كبيرا واسعا ومضيئا بطابق أرضي وبسقف مرتفع أعيد إصلاحه ليحتوي على الصيدلية. "[1] يمكننا القول أن مدينة ريوصالادو مدينة كولونيالية مركزية تهمش أمامهما باقي المدن يقطنها سكان الكولون راسمين فيها أبعاد الحياة المثالية من عمران جميل وحدائق للكروم، ريو صالادو تنوع ثقافي واجتماعي واقتصادي وتتربع على منصة التميز والأولوية في جميع المجالات .

ثانيا: ازدواجية الهوية وتمزق الذات أمام الآخر

1-**تمثل الهوية:** ماحي عم يونس شخصية واضحة الانتماء والهوية في النص الروائي، و على الرغم من تكونه المشبع بالثقافة الفرنسية وزواجه من الفرنسية جيرمان وتخرجه من الجامعة الفرنسية بشهادة صيدلي لم يتخل عن هويته الجزائرية وقيمه الإسلامية، ويظهر

[1] الرواية .ص 86.

هذا جليا في سرد يونس لأول لقاء مع عمه بعد هجرتهم من الريف نحو جنان جاتو حيث يقول: " رجل طويل القامة ونحيف يخط على دفتر خلف المصرف، متحزما في بدلة من ثلاث قطع ، وطربوش أحمر على رأسه الأشقر، له عينان زرقاوان، و وجه رقيق الخطوط تتوسطه حاشية شارب زادت من إضعاف الشق الذي يخط فمه"[1] تظهر عليه العروبة من خلال كلامه وطريقة لبسه وهذا دليل على جوهرماحي ومعدنه الصافي من ازدواجية الهوية برغم من جميع المغريات المحيطة به فيستطيع من خلالها أن يمتطي موجة الثراء والمكانة عالية ليمتطي بها موجة الثراء حين يقف بصف المستعمر الفرنسي .

عمد العم إلى تعريف يونس شجرة العائلة التي تجري دماؤها في عروقه و بطريقة فنية تمكنه من توجيهه لهويته الحقيقية، وذلك من خلال صورة امرأة معلقة على الجدار يقول: " أترى هذه السيدة على الصورة ؟ ... لقد أطلق جنرال اسم "جان دارس " كانت سيدة نبيلة ،غنية وصاحبة نفوذ كبير اسمها لالة فاطمة .....يحكي أن الأمير بعد القادر لو التقى بها لغير مجرى التاريخ ... هذه السيدة أنها جدتك " .[2]واضح جدا الافتخار والاعتزاز الذي ينتمى إليه العم من خلال نمط سرده تاريخ العائلة المجيد من جدته وصولا إلى والده يقول " مثلما فعل أبوك حينما سلمك الي ...أبوك عامل شهم ونزيه حاول أن ينقذ ما يمكن إنقاذه ولكنه كان وحيدا "[3] من خلال الصورة المعلقة على الحائط يروي العم ذكريات وأمجاد أجداده ونضالهم ضد المستعمر المستبد وتاريخهم الحافل بتضحيات، كإنجازات جدتهم فاطنة ، ليفهم يونس بأنه جذوره وأصوله من جذور نبيلة ذات قيم ومبادئ وأن أجداده أبطال مناضلون شجعان حاربوا من أجل أرضهم وضحوا بأنفسهم من أجل هذه الأرض التي نشؤوا في حضنها وخلقوا من رحمها، أرض لا يمكن الاستغناء عنها أفهمه بأن له تاريخا من سلالة آباء فاضلين وأجداد شرفاء وأن للجزائر تاريخا عريقا وليس التاريخ الذي تلقنه لهم المدرسة الفرنسية وهكذا أصبحت ليونس نظرة مفصلة عن عائلته المكونة من أجداده

[1] الرواية ، ص 17.

[2] الرواية، ص56

[3] الرواية ص ٥٧.

وأعمامه و والده (عيسى)، فمنهم المحارب والعالم، والمهاجر وأكبر دليل كلامه عن والد يونس الذي عمل في أرضه وحارب لإنقاذها من أول لحظة زرع البذور في الأرض إلى لحظة إخماد النيران التي التهمت المحصول حارب كمحارب شجاع في ساحة المعركة يقول "أبوك رجل شهم ونزيه".[1] كما وضح له المكانة التي وصل إليها برغم أنه كان على وشك الموت بعدما عجز الأطباء عن علاجه فاضطر(جد يونس) إلى أخذه للمستشفى وهناك تولت الراهبات ذلك : " أراني صورة تظهر فيها مجموعة من الراهبات إن الأخوات الطيبات هن اللائي أنقذن حياتي دام العلاج سنوات حيث كنت أتابع دراستي فتحصلت على البكالوريا وبعد ذلك قبل جدك بأن يدفع لي مصاريف دراسة الصيدلة بالرغم من إفلاسه بسبب الرهانات والأوبئة ...حينما التقيت بجرمان في كلية الكيمياء حيث كانت تدرس البيولوجية لم يعترض على اقترانا "[2]يسرد موحى كذلك مستحاثات مسيرة حياته من جانبها الفكري والعا طفي عند لقاءه جيرمان وزواجه منها رغم عدم اعتراض والده على زواجهما إلا أنه ترك له حرية الاختيار وكيفية ارتماءه في أحضان المدارس الفرنسية

وجامعة والثقافة الفرنسية التي تجرعها بكأس الندم والأسف وشعوره بأنه خان عائلته ووطنه معا الفكرة المتمثلة في القول التالي: "و قد تعاون مع الشرطة بشكل جد إيجابي بحيث أطلقت سراحه بعد أسبوع من اعتقاله دون ان تتخذ ضده أي إجراء عقابي الشيء الذي أنكره إلى آخر لحظة في حياته و قد فقد عقله مرارا لانه لم يتحمل أن يكون موضوع مثل هذا العار"[3].

كما أن ماحي كان منخرطا في صفوف الحركة الوطنية سرا وداعما لها حيث فتح منزله لأعضاء الحركة الوطنية لعقد اجتماعاتهم يقول " واصل عمي استقبال زواره الغرباء يأتون متفرقين وسط الليل وينغلقون داخل الصالون خلال ساعات ".[4] ذلك أنه كان

---

[1] الرواية ،ص 57

[2] الرواية، ص57.

[3] الرواية، ص 80

[4] الرواية ،ص75

متشبعا بالثقافة العربية الإسلامية ومتأثرا بقراءته لفكر مالك بن نبي وشكيب أرسلان؛ حيث كان يحفظ نصوصه ويقوم بإعادة كتابتها وشرحها لتنشر في مقلات طويلةوكان مطلعا على الأحداث المنتشرة على ساحة السياسية . لذا يمكننا القول أن موحى رجل نضال سياسي؛ ناضل بقلمه لخدمة قضية وطنه سواء بدعمه للقضية على المستوى الفكري أو على المستوى المادي. فكان من ذلك أن تعقد الاجتماعات السرية في منزله؛ بحيث كان تتم المصالحة بين الأطراف المتخاصمة أي بين جبهة التحرير والوطني وحزب الشعب بقيادة مصالي الحاج يقول يونس "يتعلق الأمر بضيف شرف شخصية مهيبة يقف عمي أمامه بإعجاب كبير ....لم أتمكن من وضع اسم على ذلك الضيف المبجل الا بعد مرور وقت وأنا أقرأ مجلة سياسية مصالي حاج أحد الوجوه الرائدة للحركة الوطنية الجزائرية "[1]

ماحي شخصية واعية لمكانته الاجتماعية محترم للقوانين وفي نفس الوقت رجل قضية دافع عن قضيته بكل ما يملك من قوة، صاحب هوية واحدة وهي الهوية الجزائرية، يقول يونس " عمي رجل ثقافة قارئ مواظب ومصغ للاضطرابات التي تحرك العالم العربي فكان متضامنا فكريا مع القضية الوطنية التي بدأت تنشر في أوساط النخب المسلمة "[4] [2]

يمكننا القول أن موحى يمثل الهوية الأحادية برغم من البيئة المحيطة به فهو لم يتخل عن هويته أمام الآخر المستبد .

2-تمزق هوية الأنا:

تتمثل شخصية البطل يونس في ازدواجية الهوية بين يونس الفتى العربي و جوناس الفتى الأوربي ما جعله يعيش أزمة هوية بين طفل عربي عاش في الريف وطفل أوربي تربى في حضن جيرمان الفرنسية واكتسب تعليما وثقافة من المدرسة الفرنسية وجامعتها، هذا ما جعله يعيش صراعا داخليا لم يجد له طريقا للنجاة منه ، كانت أول محطات يونس بالإهانة من طرف الآخر، ذلك الموقف الذي رآه أمام عينيه في المدرسة حين أهين عبد القادر

[1] الرواية ،ص 76.

[4] الرواية ص، 79.

العربي من طرف معلمه ، حيث وصف يونس شعوره فقال: "لقد جرحت كرامتي لأول مرة. [1]"

شاهد يونس ذلك التهميش والظلم في حق زميله عبد القادر عندما أهمل إنجاز واجبه المدرسي من قبل المعلم الفرنسي الذي ظهر في الرواية من خلال القول التالي:"هل يمكنك أن تقول لنا لماذا لم تنجز تمرينك مثل جميع زملائك ياعبد القادر؟ أبقى التلميذ رأسه منخفضا ،وقد أحمر من الخجل " لماذا ياعبد القادر لم تنجز تمرينك ؟ وحينما لم يتبق جوابا خاطب بقية القسم :هل يمكن لأحدكم أن يقول لي لماذا لم ينجز عبد القادر تمرينه ؟ ...أجاب موريس باندفاع : لأن العرب كسالى ياسيدي أن القهقهات التي انطلقت حولي سحقتني " [2] وصف العرب بالكسالى في تشخيص عام لهم دليل على احتقار الآخر للأنا،حيث كان الغرب آنذاك يصفون الجزائرين بأنذل الصفات وأقبحها ويرون أن جميعهم على نفس النهج ، فيعممون الصفة على الجميع ولا يستثنون منها أحدا، وهذه سياسة اتبعها المستعمر الفرنسي في نشر أفكاره العنصرية اتجاه الأهالي عبر تهميشه واقصائه خاصة على المستوى الفكري.

أثر هذا الموقف على يونس حيث شعر بالسحق والإذلال، وما زاد شعوره هذا عظمة أنه لم يستطع أن ينبس ببنت شفة يقاوم بها تلك الحرب التي ثارت داخله لاتبرير ليونس على سكوته حينها، فذلك السكوت الذي لطالما اعتمده في مثل هذه المواقف هو الذي قتل داخله هوية الأصلية له دون شعور منه، سعى الآخر الى نشر الجهل وبالتالي تمزيق هوية الأنا وهذه إحدى الطرق التى تبنها الاستعمار الفرنسي وتفنن في ممارستها في مختلف المجالات. ليقتل الهوية الجزائرية ،فما أن تأتي الفرصة أما الاخر حتي يلغي بمخالبه على أفراد الانا فيرده ضعيفا منهكا ،لايقوى على التقدم فظل الانا جراء هذه السياسة متأخرا فكريا ضعيفا عسكريا فقيرا ماديا .

[1] الرواية ،ص 66.

[2] الرواية، 66.

إن النص يحمل في مجمل طياته الحجج التي من خلالها تبنى الخطاب الكولونيالي الفكرة التي مفادها أن العرب فاشلون وأن الكسل علامة خاصة بهم؛ فهم عاجزون عن القيام بأية مهمة، وأكبر دليل على ذلك، عدم قدرتهم على تعمير الأرض وخدمتها أو توسيع العمران. فكانت الاكواخ مساكنهم والعيش في الحضيض والتخلف مصيرهم اليومي... حيث يصرح جيميناز صوزا ذلك الرجل الفرنسي الفاحش الثراء الذي يملك كثيرا من الاراضي الجزائرية ويؤمن عظيم الايمان بأحقيته وبنوا بلده المستعمر في امتلاك الاراضي فيقول " لقد شققنا الطرق ووضعنا السكك الحديدية إلى غاية أبواب الصحراء ،بنينا جسورا فوق مجاري المياه ،شيدنا مدنا جميلة وقرى أجمل عند منعطف الأدغال ..حولنا قفارا أبديا إلى بلد رائع ومزدهر وطموح وأراض حجرية إلى جنات عدن .....وتريدون أن تقنعوننا بأننا بنينا كل هذه المعجزات من أجل لاشئ ؟"[1] كما أن السارد وضح في مجمل صفحات الرواية أن الرؤية الاستعمارية تقوم في جوهرها على أن الجزائر بلد اخترعه الآخر؛ حيث حول الأراضي البور إلى جنات من حقول الكروم وشيد المدن الجميلة مثل مدينة ريو صالادو، و نهض بالثقافة. . وبذلك يكونون قد صنعوا للجزائر حضارة متنوعة في جميع المجالات . وكان رفض الاخر للانا الذي أظهره جيم جيمناز يشبه الى حد بعيد رفض أيزابيل ليونس ذلك اليوم حين كتشفت هويته الحقيقية، إيزابيل التي كانت صاحبة أول لحظات حب تخلخلت بداخله فتسربت كما تتسرب الأمطار إلى عمق الأرض وكانت أول تجربة عشق عاشها وأول كسر عاطفي تذوقه حينما هجرته بدون مقدمات حيث كانت تصفه بفارس أحلامها وأميرها وأجمل وجه على كوكب الأرض، وعندما سعى لاكتشاف سبب تخليها عنه وهجره بطريقة قطعت فؤاده ، صرخت باتجاهي :" كذاب ... لا أريد أن أراك ثانية ....اه نعم لم تكذب ؟ اسمك يونس ، أليس كذلك؟ يونس ...لماذا إذا تسمى نفسك جوناس؟ كان وجهها المحتقن بالاسى يرتعد : نعم يتغير كل شئ .....قالت بلهجة قاطعة : لسنا من عالم واحد ، سيد يونس وزرقة عينيك غير كافية وقبل أن تصفق مصراعي النافذة في وجهي، شهقت شهقة ازدراء وأضافت :

[1] الرواية ،ص 218.

انني من عائلة روسيليو، هل نسيت ؟ هل تتصورني متزوجة مع عربي؟ ... الموت أفضل [1]

في تلك اللحظة تحطم وسقط قناع جوناس وتلقى درسا على يد ايزابيل بأن الاسم والمظهر لا يغيران شيء شيئا في هوية الإنسان وانتمائه.

هو نسي أن يونس هويته جزائرية لم لن تتغير بتغير اسمه الى جوناس، أو حتى اخفاءها تحت ملامحه الغربي، يونس هو اسم عربي صاحبه جزائري سماه والديه به ربما لينال بعضا من حظ هذا الاسم، وربما ليكون ماكان ليونس من فرج بعد الضيق وبالفعل كان له ذلك ، فأن خروج من جنان جاتو هو بحد ذاته فرج ويسيرهذا الخروج أدخله لحياة لم لن تكون له يوما لأنه لم لن ليس منهم ، هوجزائري مهما حاول غض الطرف عن ذلك

سمي بجوناس الاسم الغربي الذي أطلقته عليه جيرمان ، ومن المعاني التى يحملها هذا الاسم (المتغير ، المحظوظ) وفعلا كان جوناس محظوظا في مزاقف كثيرة وجوانب عدة من حياته لكن محظوظ أما لا متغير أما لا هو ليس جوناس بل هو يونس، الحقيقة التي لايمكنه انكارها هو الأمر الذي دفع ايزابيل الى رفضه.

هذا الرفض هو نسخة مصغرة لرفض الآخر للأنا وهويتها؛ هو رفض ليونس الجزائري وانتصار لجوناس الفرنسي، فاكتشف يونس أن الذات الاستعمارية ذات متعالية، تقصي الانا بأبشع الطرق لتفرض سيطرتها وهيمنتها، الذات المتعصبة والعنصرية لها نظرة احتقار لشعب وأمة كاملة .

يكشف يونس على لسان ايزابيل العنصرية مدى الجرح العميق الذى زلزلت به كيانه وحطمت به كبرياءه يقول " صدمت ، واضطربت مثلما يخرج المرء من نوم اصطناعي من

[1] الرواية ، ص 90.

الآن فصاعدا سوف لن أدرك الاشياء بالطريقة نفسها .....أخرجتني ايزابيل من قفص ذهبي لترميني داخل بئر."[1]

ثالثا: دراسات الشخصيات:

1-شخصيات الأنا:

أ- **الهامشية:** تزخر طيات الرواية بشخصيات هامشية حيث ترسم هذه الشخصيات علاقات التي تربطها بشخصيات الأخرى وسنتطرق لذكرها فيمايلي :

-عيسى: والد يونس رجل مزارع ، يعشق أرضه لدرجة الهيام ورب لأسرة تتكون من والدة يونس والبنت الصغيرة زهرة ، يعيشون في الريف على نحو تعبير السارد " أمي في ظل كوخها ، منحنية فوق قدرها تحرك بكيفية آلية حساء .....زهرة اختي التي تصغرني بثلاث سنوات ،"[2]

في سنة 1930، كانت الامراض والأوبئة منتشرة بين العائلات والحيوانات، تسحقها سحقا الا أن عيسى لا يتأثر بالموت التي تحيط بهم، كل همه الوحيد المحافظة على أرضه يعشقها حد النخاع يقول يونس " يحب البقاء ،متشبثا بمحراثه، شفتاه بيضاوان من الزبد ، أحيانا يبدو لي كرب يعيد خلق عالمه وابقي الساعات الكاملة أراقبه ،منبهرا من صلابته واستبداله ..... لم توجد عينا ابي الا أرضه" [3]. فعيسى شخص متفانٍ في عمله وبالرغم من الأمراض والبؤس المنتشر ظل متمسكا بمحراثه ، يقدس أرضه ويحارب من أجل استعادتها؛ بعدما أرهقته الديون، قام برهن الأرض ، معتمدا على نفسه لأنه كان متيقنا من استرجاع أرضه وارض أجداده. يمكننا الجزم أن عيسى صاحب شخصية قوية لا يخضع إلى أي ظرف من الظروف وإن له من القدرة على خوض المعارك الدامية، ما جعله محط إعجاب يونس. إذ كان يراقب والده بدهشة وهو يرافق الأرض في رحلتها الإنتاجية؛ من

[1] الرواية ، ص 90.

[2] الرواية ،ص 7.

[3] الرواية ، ص 8.

أول لحظة اعتناق الأرض للبذور وصولا لمرحلة حصاد المحصول. يقول : " اتخذ أبي مكانا فوق ركام الحجر ولم يتحرك ، ينكمش تحت " مظل " الحلفاء ويقضي معظم أيامه يتأمل المحصول الذي يعد أخيرا بفرحه أكيدة بعد سنوات عجاف من الجذب وقحولة الأرض" [1].

وقعت المصيبة بعدما اشتعلت النيران والتهمت المحصول بسرعة الضوء تحطمت احلام عيسى وتحطم كيانه في استعادة أرضه ، وقعت الكارثة حينما قرر القدر أن يرمى بشخص نبيل في متاهة لا نهاية لها يقول السارد: " ذات ليلة ، بلا أدنى إخبار انقضت علينا المصيبة .....ركضت نحو الحوش ، فرأيت النيران الهائجة تلتهم حقولنا ، تصاعدت أنوارها إلى الذروة الخالية من أية نجمة حارسة ، كان أبي يتخبط كالمجنون بصدره العاري ، الملوث بلطخات سوداء يتصبب عرقا يغطس دلوا صدئا في الحوض مياه شرب الحيوانات ...يرجع لأخذ الماء ويعود إلى الجحيم ". [2]

بعد ثلاث ايام انهار عيسى كليا سقط على الارض منفجرا بالبكاء أمام الملأ كسقوط نيزك من السماء ، مدركا حجم الكارثة التي وقعت عليهم. فكانت النهاية مأساوية سلخت منه أرضه بعدما جاء القائد أو بصفة أخرى المتواطئ مع الكولون الذى أمره بالتوقيع على وثائق تسلبه حق امتلاك الأرض وتجعلها من نشيب الكولون، يقول يونس " القائد محاطا بحرسه الخاص دون أن ينزل من عربة الكاليش الفاخرةأمر أبي بدمغ بصمات يده على الوثائق التي أسرع فرنسي ضامر وشاحب ...لم يفكر أبي ولم يتردد للحظة وضع أصابعه بداخل اسفنج مبلل بالحبر وطبعها على الأوراق ".[3]

كانت لعيسى علاقة وثيقة تجمعه بأرضه كعلاقة الرضيع بحضن أمه جمع خلالها عيسى شخصية الرجل القوي الذي حارب عن شرفه استرجاع ما خطط المستعمر لأخذه ولو لا غدر المستعمر حينما أشعل المحصول لكانت الأرض ملكا له.

---

[1] الرواية ، ص 8.

[2] الرواية ، ص 10.

[3] الرواية ،ص 11.

هاجر عيسى وعائلته نحو مدينة وهران في محطة أخيرة تنهى وجوده في طيات الرواية ليبقى ذكرى تسكن روح يونس ذكرى جسدت المعاناة والألم الحب والشجاعة لتمسك في أرض ترمز لهوية شعب كامل بدون استثناء يقول يونس " توقفت الحافلة في مساحة محاطة بالأشجار ، مقابل بناية كبيرة بالأجر الاحمر هجم المسافرون على أمتعتهم في تسرعهم رفس بعضهم قدمي ...ها هي المدينة ."[1] يونس كان منبهرا بجمال واناقة المدينة، بينما والد كعادته يمشى بخطى ثابتة غير مبال بما حوله وقوي كعادته ، للقاء أخيه موحى " الاخ الكبير" الصيدلي العلاقة بينهما كانت أشبه بعلاقة اخ لأخيه لأن موحى من وجهة نظر عيسى رجل تخلى عن مبادئه وفضل العيش في أحضان المجتمع الفرنسي كما أنه متزوج من فرنسية، عيسى لم يتبع خطى أخيه ماحي، و لو اتبعها لما كانت حاله مثلما هي عليه، لم يكن ليضطر إلى تسليم ابنه، لم يكن ليضطر إلى الاختفاء و عدم الظهور مجددا، لكن كان إيمانه عظيما بأن بإمكانه استرجاع حياته الكريمة بنفسه دون أن يضطر لمد يده و معاشرة الفرنسيين و العيش بينهم كي يوفروا له عملا أو منزلا، ربما هم في نظر عيسى أنذال مجرمين، قتلة سفاحين، على عكس العم ماحي الذي تعايش معهم، ولم يكن بينهم إلا كل خير، فكان صيدليا بينهم يداوي جرحاهم و مرضاهم، يختلف الإخوة عيسى و ماحي كل الإختلاف في نظرتيهما للحياة و أسلوب العيش فيها.

ماحي شخصية مثقفة متعلمة لها مكانتها في المجتمعين الفرنسي و الجزائري في حين عيسى رجل فقير يتكبد عناء حياته البائسة و يرغب في تكوين نفسه و الانتقال بعائلته إلى مستوى عالي و مرموق، لكن بعرقه و دون جميل أو فضل من أحد حتى لو كان أخاه.

استقرت العائلة في جنان جاتو الوجه القبيح خلف المدينة الجميلة وهران مكان يشبه ظلال الاشباح تنتشر فيه الأكواخ، والبراريك العفنة، والزرائب البهائم، وقد سبق ذكر تفاصيل المكان آنفا .

[1] الرواية ،ص 15

عيسى دخل المعركة في جولة ثانية بكل عزيمة وقوة دون أن يضيع الوقت للبحث عن عمل يكسب به قوته في جانب الاخرى كانت والدة يونس ترتب غرفة التي استأجره في الحوش محاولة رسم ملامح منزل يأوي عائلة كشر الزمن أنيابه عليها كانت أم يونس إمراءة خجولة محتشمة مطيعة لزوجها سندا له في جميع الظروف يقول يونس " قامت أمي بتنظيف جحرنا وأدخلت قليلا من النظام في أمتعتنا " [1].

اتسعت الفجوة بين عيسى الاخ الصغير وموحى الاخ الاكبر حينما ،لمح العم أن يترك يونس للعيش معه وإخراجه من دائرة الضياع التي يعيشها معه صرح موحى بقوله " لا اعرف كيف أشرح لك ما اريد قوله وجدت دائما عوائق كثيرة للحديث معك أخاف أن اجرح كبرياءك في وقت أرغب أن أكون أخاك .....ياعيسى ابنك حفيدي أنه من دمي اتركه عندي تعرف جيدا أنه لن يحقق شيئا ذا بال في جرتك ...يجب أن تري الواقع كما هو برفقتك لن يذهب الطفل بعيدا لا تسئ فهم طلبي فكر بعقلك ولو دقيقة واحدة أن هذا الطفل للمستقبل له معك."[2] وقعت هذه الكلمات على عيسى موقوع صاعقة على شجرة فأحرقت الاخضر واليابس فيها أحس بإهانة كبيرة أشعرته أنه عاجز على تقديم حياة كريمة ليونس وهنا نلمس الاختلاف الكبير بين موحى وعيسى ،عيسى يمثل الهامش الهامش من حيث كونه ذلك الإنسان الجاهل الفقير الذي همشه الكولون فخطف أرضه وسيسلب منه ابنه، بينما موحى الذي يمثل الهامش مجسدا في الرجل المتعلم الصيدلي الواعي والمثقف المتشبع بالثقافة الفرنسية صاحب المكانة الاجتماعية الراقية. هذا الاختلاف يشبه اختلاف الليل عن النهار كأن الليل يمثل عيسى والنهار يمثل ماحي. عيسى يجسد الرجل المستعمر المقهور المظلوم وماحي يمثل الرجل الحر المتعلم المثقف الغني ..الخ وهدا الفرق يمثل الجزائر المحتلة وفرنسا المستعمرة المستبدة، ظهرت معاني هذه الفكرة من خلال بعض من أحداث الرواية التي تصور معاناة عيسى و رغد عيش العم ماحي، حيث ورد في وصف عناء عيسى التالي: " ظهر أبي أخيرا، شاحب الوجه قلقا.....يتمكن أبي من خطف شغل

[1] الرواية ،ص 21.

[2] الرواية ، ص 38

مستعجل لا يدر له حتى ما يكفيه لشراء قطعة صابون.....يرجع إلى البيت مترنحا بوجه جهم و ظهر متألم من كثرة الأثقال التي يحملها طوال النهار"[1].

يمثل عيسى أعظم صور الشقاء الذي يعيشه الجزائريون في هامش الأراضي، لم يكن الوحيد الذي يعاني، مثله الآلافو ماهو إلا جزء لا يتجزأ منهم، العم ماحي يعيش غير الظروف التي يعيشها أخوه، يملك عملا و منزلا خاصين، بل و منزل جميل جمال منازل الأوروبيين حسب وصف يونس، فهما إذن لا يعيشان الحياة نفسها، ومن الطبيعي أن تؤثر طبيعة حياة كل منهما على عقليته و طريقة تفكيره و منظوره للحياة، لذلك قلنا أن عيسى يمثل الليل الذي ألقاه الاستعمار و ماحي يمثل النهار و إن لم يكن بالمعنى الحقيقي للكلمة.

قال عيسى ليونس: " ربما قهرتني الحياة بعض الوقت ولكنني لا أزال على قيد الحياة وما دمت حيا، سأفعل المستحيل للخروج من هذه الحفرة العفنة عندي صحة ثور وراعاي يرفعان جبلا وكرامتي ليست للبيع كان الثمن ...صحيح أنني لم أكن قادرا على إنقاذ أراضينا ولكنك تتذكر جيدا زرعت القمح وكان المحصول سيكون وافرا لولا تلك المصيبة التي حدثت وهذا ليس خطئي انا ...كنت ساذجا لم أعد كذلك الان لا أحد سيطعنني في الظهر ...سأنطلق من الصفر [2]."

بعد أن تجرع عيسى كأس الإهانة من أخيه الأكبر، ها هو سقى الكأس ذاته وهذه المرة من يونس بحد ذاته ، وذلك حينما قدم له أموالا ادخرها من بيع العصافير، ليساعده على تجاوز أزمته المالية ، يقول يونس " ذات مساء، انهار كل شيء في وقت كنت افكر أنني سأجعل ابي فخورا بي ...بفظاظة امسكني ابي من اليد يقاطعني من جديد ...افتح أذنيك جيدا يابني، أنا لست بحاجة إلى نقودك ولا إلى أمام يقرأ شهادة موتي " يمكننا القول أن عيسى صاحب كبرياء عالي، ولا يريد جر يونس في مشاكل الحياة ولا أن يتحمل مسؤولية مساعدته في اي شيء ، فأفهمه بأنه قادر على توفير لهم لقمة العيش وحمايتهم

[1] الواية، ص26.

[2] الرواية ،ص 29.

يردف قائلا "انا نادم اشد الندم لأنني لا استطيع توريثك أرض أجدادك ، ولايمكنك تصور مدى مدني وألمي . لا تمر لحظة دون أن ألوم نفسي ولكنني لا أستسلم أستميت في الشغل كي أسترجع قليلا مما ضاع ولكن مسؤولية إخراجكم من هذا الجحيم مسؤوليتي وحدي دون غيري هل تفهمني يا ولدي ؟".[1] هذه الحادثة دفعت عيسى إلى مضاعفة عمله فأصبح يصرح أمام عائلته عن نواياه المستقبلية كأن يوسع حقول أشغاله كان يتعمد أن يسمع يونس ليؤكد له بأنه ليس في حاجة لمساعدته أو مساعدة عمه (موحى). حيث تغيرت تصرفاته كليا ، كان يعدهم بالعجب والعجائب فرسم لها أحلام كأنها حقيقة بحيث فرحت والدة يونس بتغير الملحوظ في لمعاملة زوجها لهم،بالرغم بدريتها التامة أن كل الأحلام التي يطمح في تحقيقها مجرد وهم مزيف وهي مظطرت بتظاهر أمامه أنه تصدقه.

جاء يوم الخميس، يوم لقاء عيسى مع الرجل الذي اتفق معه على بناءمشروع حياته، كان يوم جحيم ولعنة ليونس، يوم انهار فيه والده بطعنة غدر أطروحته في الأرض مهزوما من قبل "ألمور " الذي كان بانتظاره انتظار الموت الروح لنزعها من الجسد، حيث وقع عيسى ضحية مؤامرة لسرقت المال الذي بحوزة عيسى يقول يونس " ألمور كان هناك يشبه طائرا كاسرا جاثما على مصير أنسان .....أنقض على أبي ،لكمة قوية، لكمة ثانية ....دافع أبي عن نفسه ببسالة، رد الصاع صاعين قاوم مقاومة الأبطال ...أختلط دم ابي بماء المطر وسأل باتجاه المجرى ....حينما اكتشف كيس النقود مخفيا تحت الابط بضربة خنجر قطع الخيط الذي يربطه بكتف أبي".[2]

سقط عيسى سقوطا حرا بعد هذه التجربة المؤلمة، حولته من رجل قوي إلى رجل مكسور ومقهور بائس في كآبة حادة في غرفته تحت تأثير الصدمة، لكن سرعان ما أنتقم عيسى من ألمور فقتله بطعنة خنجر يقول يونس " لمعت شفرة خنجر جزار في قبضته ، وقف ارتدى غندورته ودس السلاح الأبيض بداخل القلمونة .....انتشر الخبر في جنان جاتو كما تأكل النار الهشيم كان بليس السمسار مبتهجا يمر من باب الى باب صارخا :" المورو

[1] الرواية ، ص 39.

[2] الرواية ، ص 47.

مات ، انبسطوا أيها الناس الطيبون ألمور مات ، انبسطوا أيها الناس الطيبون ألمور لن يزعج أحد ، لقد بقر شخص أخشاه بضربة خنجر".[1] تجسد هذه المأساة الصراع بين الخير والشر حيث القوي يأكل الضعيف وكيف للظروف أن تحول الإنسان من رجل صاحب مبادئ ونزيه إلى مجرم قاتل كما ترسم بوضوح الوضع الذي كان يعيشوه أهالي جنان جاتو المهمش مع الأهالي في جانب الاخرى الجانب المركزي لأهالي الاقدام السوداء.

بعد يومين من جريمة قتل ألمور توجه عيسى بيونس نحو صيدلة موحى وترك يونس للعيش عنده قال: عيسى " أنت على حق ، يامحي ليس لأبني أي مستقبل معي بقي عمي غافر الفم قرفص أبي أمامي أوجعتني أصابعه حينما أخذني من كتفي حدق في عيني بقوة وقال: هذا من أجل مصلحتك يابني أنا لا أهملك ولا أتنكر لك ، أحاول فقط أن أمنح لك حظوظا أكبر في حياتك ".[2]

اختزلت شخصية عيسى في مجموعة من المحطات من خلالها دافع بها عن أرضه وعائلته بكل ما يملك من قوة وعزيمة وإصرار على الحفاظ عليهما ، لكن شاء القدر عكس ذلك نزعت منه أرضه وخسر الرهان وترك يونس عند عمه بعد إدراكه التام بأن لا مستقبل له معه ، واخيرا تخليه عن زوجته وابنته زهرة .

بعد الحادثة الأخيرة التي ختمت مسيرة ووجود عيسى وكينونته عند لقاءه الاخير مع يونس صدفة في الشارع حيث أصبح رجلا سكيرا متشردا في الشوارع فكان هذا اللقاء بمثابة مشهد ترجيدي ، يجسد معاناة حقيقة لمأساة رجل قوي سلط عليه الظلم بأبشع الطرق وهاهو اليوم في حالة لا يرثى لها وضعت النهاية ، لهذه الشخصية النبيلة في طيات الرواية يقول يونس "رأيت رجلا سمينا غاضبا يمسك متسولا من الرقبة وحزام السروال يدحرجه على الرصيف سقط المسكين عند قدمي في صوت حزمة تبن كان في

[1] الرواية ، ص 48.

[2] الرواية ، ص 49.

حالة سكر متقدمة قال خادم الحانة وهو يقف عند العتبة، لاتضع قدميك هنا مرة ثانية أيها المقمل ..عندما رفع رأسه باتجاهي ، تفتت وجهه إنه ابي.

ابي ...الذي كان قادرا على رفع الصخور وهز الجبال ، ...كان هنا عند قدمي ، على الرصيف ، غارقا في أسمال نتنة ، الوجه متورم ، وزاويتا الشفتين تقطران ريقا وزرقة عينيه أكثر مأساة ، من الزرقة الجاثمة على وجهه ...حطام ..حرقة ...مأساة".[1]

-نسوة حوش جنان جاتو :

[1] الرواية ، ص 67.

*** أم يونس:**

إمراءة جميلة وخجولة ، زوجة مطيعة وأم صالحة هذه الشخصية تعطي أبعادا أخلاقية للنساء في فترة كانت الاستعمار الذي يفرض سيطرته، وكان الفقر والجهل وانتشار الأمراض والأوبئة سيد الموقف ؛ فكانت تتحمل المشاق والصعاب مع عيسى بدون أن تعترض يقول يونس :"مشينا إلى أن فقدنا الاحساس بأقدامنا ....تترنح أمي خلفنا مثل شبح ملفوف في كفنه ، لا تتوقف إلا لتغير أختي إلى الكتف الاخرى تجاهلها ابي الذي واصل سيره قدامه بخطى ثابتة ".[1]

تقوم أم يونس بمهامها من تنظيف وطبخ وتربية ليونس وزهرة وتلبية حاجات زوجها، دون أن تتذمر من الأوضاع السيئة التي يعيشها منذ هجرة أسرتها إلى جنان جاتو يقول يونس: " قامت أمي بتنظيف جحرنا وأدخلت قليلا من النظام في أمتعتنا تعشينا بفظاظة ونمنا مباشرة ."[2]

لكن شاءت الأقدار أن تبعد يونس عن أمه و تفرقهما، أخذ عيسى ابنه لأخيه كي يتولى تربيته بعد أن ضاقت به السبل، لم تحرك أم يونس ساكنا و لم تظهر عليها ولا بادرة من بوادر الحزن و الألم، لم تحاول أبدا إقناع زوجها بإبقاء ابنهما تحت جناحهما. ربما هي أيضا قد أدركت أن لا حياة ليونس معهم، و أن البؤس و الشقاء سيكون مصيره، حتى في تلك اللحظات التي كان يونس يأتي لزيارة أمه كانت تستقبله استقبالا إن أوحى بأمر ما فإنما يوحي إلى رغبتها بعدم قدوم يونس إلى الجنان مرة أخرى، لم تفكر في أن رغبتها هذه ستقطع تدريجيا أي علاقة تربط يونس بعائلته و جنان جاتو و مكانه و كذلك ستحجب نظر يونس عن المعاناة التي عاناها هو يوما و يعانيها أهله و أهل أرضه.

[1] الرواية ، ص 14.

[2] الرواية ، ص 21.

كانت لقاءات يونس بأمه بعد أن غادر للعيش عند عمه جافة بعض الشيء و لم تحاول و لا مرة أن تبقي ابنها معها أو زيارته و هو عند عمه و دليل ذلك قول يونس: " دفعتني برفق؛ ربما كان وزني يمنعها من التنفس، قالت: لماذا رجعت؟

.....كيف اهتديت إلى طريق الحوش؟"[1]

إن ترك يونس عند عمه أمر معهود، لكن غير المعهود هو عدم تلقيه لأي زيارة ولا رسالة من أحد والديه، و كأنهما حين قررا تسليمه للعم ققرا بذلك التبرأ منه أيضا كبر يونس عند عمه و لم يلتق بأمه سولى مرتين فقط، و بعدها صار يونس أشبه بيتيم، وأمه بمثابة المرأة التي ثكلت ولدها و لم يعد له في الدنيا وجود حيث أضاف يونس في نفس السياق قائلا: " لو كنت أعرف أنها تحدثني للمرة الأخيرة في حياتنا لكنت صدقت مجموعة خرافاتها و لبقيت بقربها، و لكن كيف لي أن أعرف؟

من جديد هي التي أصرت علي بالذهاب لألتحق بوالدي الجديدين دون تأخير"[2]ذلك الإصرار من أمه هو الذي أنساه فيما بعد هويته، هو الذي أنساه من يكون، هو الذي أحدث كل ذلك الإضطراب في شخصية يونس، نسيته أمه و سلمه أبوه ثم جاء دوره فنسي هو أيضا و سلم نفسه لهوية جديدة وجد فيها الاحتواء و الاهتمام أكثر من تلك التي كان عليها قبلا، إذا فاللوم لا يقع على يونس لوحده حين نجده مزدوج الهوية أو متمزقها، فالهوية تنمو في الفرد منذ الصغر و يونس تناساها أو بالأحرى فقدها.

تجمع نساء الحوش عند غياب أزواجهن مجسدات لنساء تلك الحقبة فترة حيث تلتقى النساء حول البئر ويقضين معظم الوقت في الحفر في الماضي، يتحدثن عن بساتينهن المسلوبة، عن هضابهن الخضراء المفقودة إلى الأبد، عن الاقراب المتروكين هناك ، في بلد جميع المصائب، وقد لا تراهن ثانية أبدا حينئذ تذبل الوجوه حزنا وترتج الأصوات ".[3] من

[1] الرواية، ص61

[2] الرواية، ص 99

[3] الرواية ،ص 24.

خلال حديثهن عن الحرمان الذي سلطه المستعمر الفرنسي، لمّا سلبهن الأراضي وما حوته من بساتين وهضاب وسهول، و حرمهن لقاء الأهالي الذين خلفوهن وراءهن، نبشن الماضي و عادت الأفئدة لتتقطع تقطع تلك اللحظات التي عشن فيها الموقف.

تربط نساء الحوش علاقة ود واحترام، يتقاسمن الحلو والمر يجسدن صورة التكافل والتضامن فيما بينهن رغم الظروف الصعبة، " استقرت النساء في ركن من الفناء حول مائدة صغيرة، يرتشفن الشاي ....كانت أمي بينهن متحفظة، وأختي زهرة بين ذراعيها. انتهى الأمر بها لمشاركتهم الحديث، أمي خجولة وغالبا ما تحمر وتكاد تختنق من الضيق حينما نتطلق بدرة في حكاياتها الفاحشة ".[1] بعد حادثة سرقة ألمور لعيسى المؤلمة فقدت يونس وبعدها فقدت زوجها الذي هو بدوره تخلى عنها وعن ابنتهما زهرة في ظروف غامضة ، وبالرغم من ذلك ظلت مخلصة لزوجها قابعة في مكانها تنتظر رجوعه، إمرأة مخلصة تربطها علاقة حب واحترام لزوجها مؤمنة انه سيعود لهم ويحقق كل الأحلام التي وعدها بها من منزل جميل يحوى حديقة، ومرأب سيارة وممكن أن العودة إلى الريف ونسترجع أرضنا ونسترجع أمجادنا صرخت في وجه يونس قائلة " لا ، لا أتحرك من هنا طالما أن أباك لم يعد ، تصور لو يرجع ولا يجدني في المكان الذي تركني فيه أين سيبحث عني ؟ ليس ولا أصدقاء في هذه المدينة الغولة ثم أين تقع ريو صالادو هذه ؟ لا يحضر في بال أبيك أننا قد غادرنا وهران لا سأمكث في هذا الحوش إلى غاية رجوعه ".[2] عبارة " لا سأمكث في هذا الحوش إلى غاية رجوعه " تدل على قوة شخصيتها وبقائها في المكان الذي تركها فيه، على ثقتها في زوجها أنه سيعود إلى الحوش الذي خلفها فيه.

[1] الرواية ، ص 26.

[2] الرواية ، ص 98.

*** بـدرة :**

أم لخمسة أطفال، تمتلك من روح الفكاهة ما يجعلها تروي حكايات فاحشة تستقطب نساء الحوش ليغرقن في ضحكات لا متناهية " هناك بدرة الأمازونية الضخمة التي تموت في قص الحكايات الفاحشة، كانت جرعة الأوكسجين تبهجها." [1]

*** باتـول:**

إمراءة خمرية ونحيفة شابة في الأربعين من عمرها، تزوجت قسرا لشيخ في سن جدها ، تمتهن حرفة قراءة الكف ومعرفة ما يوجد بالمستقبل إذا باتول عرافة ومفسرة الاحلام لنساء الحوش مقابل حبات بطاطا أو كيس صابون أو قطع نقدية عل نحو " هناك باتول، نحيفة خمرية مثل حبة القرنفل، شابت وهي في الاربعين ، ووجهها ملئ بالوشوم .....تقرأ في خطوط اليد وتفسر الاحلام "[2] الوحيدة التي لها نهاية مختلفة عن نسوة الحوش حيث أنها اشترت منزلا وحماما من الأموال التي جمعتها في قرية الزنوج .

*** يـزة:**

إمرأة عقيم لم تنجب أطفال فتتعرض للضرب من زوجها كعقاب لها ، فقدت اغلب أسنانها جراء الضرب وتعنيف من زوجها مثلما ورد:" هناك يزة سمينة شقراء، بصدر ضخم، يضربها زوجها السكير تقريبا كل ليلة ، تحدب رأسها من كثرة الضرب المبرح ..عيبها أنها لا تنجب مما يضاعف غيظ زوجها اتجاهها".[3] نهايتها انتحرت في قعر بئر للخلاص من ظلم زوجها السكير.

---

[1] الرواية ، ص ٢٤.

[2] الرواية ، ص ٢٤.

[3] الرواية ، ص ٢٤.

*** ماما :**

أم لعدد كثير من الأطفال، تقوم بأي تنازل مقابل حماية سقف بيتها عل نحو " هناك ماما غارقة إلى الرقبة وسط عش من الأطفال الهائجين تقوم بشغل عشر خادمات مستعدة لتقوم أي تنازل كي تمنع سقفها من السقوط عل رأسها ".[1]

*** حدة :**

فاتنة الجمال، وأم لطفلين رحل عنها زوجها وتركها في حسرة الانتظار ولولا مساعدة الجيران لكانت متسولة في الشوارع عل نحو "هناك حدة ،جميلة كما حور الجنة لم تكد تخرج من المراهقة حتى رزقت بطفلين "[2]. نهايتها طردها ابليس من الحوش رحلت بدون رجعت.

نسوة الحوش تمثل صورة العلاقات الاجتماعية مع بعضهن البعض تعطى للنص لمسة جمالية ، تتمثل في نمط حياة العائلات الجزائرية في فترة الاستعمار وعلى الرغم من كل المعاناة التي حلت عليهن إلا أن هناك عامل مشترك في مأساتهم هو الاستعمار الذي دمر حياة كل واحدة منهن بطريقة خاصة.

كان يونس يحب الاستماع لقصصهم، وهذا ما مكنه من وصفهم بطريقة جميلة رسم من خلالها ملامح كل وحدة منهم، وأعطى أبعاد العلاقات التي تربطهم ببعضهم البعض خاصة اشتراكهم المعاناة والحرمان من أراضيهم وأحبابهم في فترة الاستعمار الفرنسي. لكن و تدريجيا اختفى شغف يونس بجنان جاتو عامة و بنساء الحوش خاصة نتيجة البعد الذي فرض عليه، الأخير الذي أنساه حتى هويته الجزائرية العربية، بل وعائلته أيضا. حيث أصبح شعوره اتجاه معاناة الجنان و سكانه ملؤه البرود و اللامبالاة.

-أطفال الحوش

[1] الرواية ، ص ٢٤ .

[2] الرواية، ص 25.

*** دحو :**

طفل قصير القامة مجهول العائلة يشببه يونس بشيطان لأنه يزرع الرعب في قلبه معروف بالمشاغبة والغموض يترأس اطفال الحي وقائدهم يقول يونس " طفل قصير القامة، قمئ الوجه وماكر كالشيطان ، كان يرعبني بمجرد أن يظهر طرف أنفه في اخر الزقاق .....كان طفلا غامضا مخاتلاكما كما الصاعقة ...لا أحد يعرف من أين جاء. ولا من هي عائلته ".[1] يتفق الجميع على نهاية مأساوية له إما على حبل المشنقة أو بطعنة وتد.

*** هـواري:**

صديق طفولة يونس طفل عاش طفولة بائسة لا يملك منزل يأويه ولا عائلة معروفة ربما كان يتيما ،او هارب من منزل عائلته ، يحب البقاء وحيدا ، يمتلك وراء هدا الطفل شخصية قائد لأنه يختلف اختلافا كليا عن باقي الاطفال؛ معتمد على نفسه يقضى معظم وقته في اصطياد العصافير لبيعها يقول يونس " هواري كان نحيفا ،بل وضامرا ضمورا مربكا ، أشقر اللون ، أصهب تقريبا ، بحاجبين ممتلئين وأنف على شكل منقار طائر...

كان طفلا غريب الأطوار ووحيدا ،يلبس سروال المدن فيما كان اطفال الحي لايزالون يلفون أجسادهم في العباءات ".[2] هواري بالرغم من صغر سنه طفل صاحب شخصية قوية يختلف بها عن اطفال الحي هادئ ومسيطر مما جعل يونس يشعر براحة برفقته ويعتبره صديق الطفولة مخلص وأمين يقول يونس " تحصلت على أولى نقودي مع هواري، هواري لا يغش ".[3]

هواري الصديق الوحيد ليونس أيام الجنان، مرت به السنوات و الأيام و لم يربطه بيونس أي رابط، فما كان بينهما انتهى بمغادرة يونس الجنان و انتقاله من حياة إلى حياة جديدة لا تصل حياة الجنان بصلة تذكر، شاءت الأقدار أن يتجدد لقاء يونس بالهواري، لكن في

[1] الرواية ، ص 33.

[2] الرواية ،ص 37.

[3] الرواية ،ص 37.

ظروف مختلفة تماما، حيث كان يونس هو ملجأ رفقاء الهواري الذي اختار الانضمام إلى صفوف المقاومة الجزائرية، فحين أصيب في عملية إرهابية تلقى علاجه آنذاك في منزل يونس، أعادت تلك اللحظات يونس إلى أيام الجنان، حين كان الهواري صديق يونس الوحيد هناك، و كان له الفضل في حصوله على أول أجر مادي عندما تعلم على يده صيد العصافير و بيعها، وصف يونس هذا في قوله: " في اللحظة التي فتح عينيه ، تعرفت عليه برغم السنوات و نوائب الدهر: هواري؟ ...إنه هواري، شريكي السابق الذي علمني فن التمويه و صيد العصافير، في جنان جاتو"[1]

أيقظ لهواري داخل يونس ذكريات كانت نائمة لسنوات، حرك داخله بعضا من هويته الأم، استعاد يونس داخله جزء من ماضيه في جنان جاتو...الماضي الذي بدا كما لو أنه و نهائيا من عقل و قلب يونس، أردف يونس في نفس السياق فقال: "تذكرت سنوات جنان جاتو حينما كنت اعتبره صديقي و حامي.."[2]

لقد أعاد الهواري يونس إلى أيام الجنان، تلك الأيام التي نسي إياها يونس، تحركت هويته الحقيقية الجزائرية بمجرد رؤيته للهواري، و لطالما كان هذا نهج هوية يونس العربية النائمة، لا تستيقظ إلا بمنبه خارجي، و أثناء ذلك كان الهواري هو ذلك المنبه.

*** زهـرة :**

[1] الرواية، ص246

[2] الرواية، ص 248

اخت يونس طفلة صغيرة وشخصية صامتة في النص لم تتفوه بكلمة لأنها صماء وبكماء تصغره بثلاث سنوات يقول " زهرة اختي التي تصغرني بثلاث سنوات ،منسية في عمق ركن ،كتومة إلى حد أننا في الغالب لا ننتبه إلى حضورها ."[1]

أطفال الحوش عاشوا طفولة محرومة ، وبائسة ، أكلهم الجوع وحرمهم الجهل من العلم فلا وجود لمدارس تنير حياتهم ولا مستشفيات تضمد جروح قلبهم المكسورة فكان جنان جاتو حجيهم الذي ينهش طفولتهم البريئة يقول يونس " أسكرهم الجوع والرعن كانوا مآسي ناشئة ، أطلقوا في الطبيعة مقرفين من الأوساخ والعدوانية ،يركضون حافي الأقدام كي يتسلقوا خلف الشاحنات المتعرجة وسط العربات ، وهم يقهقهون غير مبالين يلتمسون الموت ."[2]

- رجال جنان جاتو

*** ألمور:**

رجل يتمتع بالقوة والدهاء يقول يونس " ألمور ليس مواجهة عادلة ؛ألمور أنه الموت الزاحف ..أنه يواجه شخصا ما ويفقد راشات قليلة فقط ، لهو انجاز عظيم ." [3]شخصية ألمور تمثل انعكاسا لغطرسة ل هيمنة للمحتل الفرنسي. فهي نتيجة لسياسة المستعمر المستبد؛ فروحه الشريرة الماكرة هي اسقاط لواقع تحت ظل هيمنة هجومية مطبقة منذ أول وهلة وطئت أقدامهم فيها الأراضي الجزائرية منذ حادثة المروحة 1830حتي يوم الاستقلال المبارك 1962.

ألمور رجل يزرع، إذ يمكن القول إن هذه الشخصية لها الأثر البليغ على مسار حياة يونس عندما حطم كبرياء والده عيسى إثر حادثة السرقة التي تعرض لها والده يقول يونس :" ألمور كان هناك ...بمجرد أن رآنا ندخل الزقاق خرج من مخبئه ..أنقض على

[1] الرواية ،ص 7.

[2] الرواية 94

[3] الرواية ،ص 41.

أبي ؛لكمة قوية أولي ، لكمة ثانية ..ألمور كان قويا ماكرا ، إن تجربة الصعلوك التي يتميز بها ...تغلب على شجاعة ابي ..قرفص الكاسر قرب فريسته ،مزق عباءتها ، لمع وجهه مثل ليل تحت برق حينما اكتشف كيس النقود مخفيا تحت الابط ،بضربة خنجر قطع الخيط الذي يربطه بكتف أبي ."[1]

ألمور شخصية شريرة تتميز باحتيال تتطابق مع شخصية المستعمر الفرنسي حينما استولى على الجزائر أثر حادثة المروحة ، ،1830 وبذلك جمع بين قوة المواجهة والدهاء في الاستيلاء على ممتلكات الغير ، كما يمكننا القول أنه كان مواجهة نفسية ورعبا حقيقيا عاشه يونس في مشاهدة لمأساة واقعية حطمت كبرياء والده، وغيرت مسار حياة يونس من كنف العيش تحت ظل والده إلى كنف العيش تحت ظل عمه .يجسد يونس أحداث فصول هذه المأساة و الرعب الذي عاشه بقوله : "سقط أبي تحت ضربة الشغربية، أنقض عليه ألمور ولم يترك له أدنى فرصة للنهوض ....شلني الرعب كما لو أنني في كابوس .أردت الصراخ ،أردت الركض لأنقاذ أبي ؛ولكن وريد ولا عضلة استجاب لندائي .اختلط دم أبي بماء المطر وسال تجاه المجرى. " [2]

نهاية ألمور تتزامن مع نهاية شخصية عيسى ومع بداية المرحلة الانتقالية لحياة يونس،؛ من يونس فتى العربي إلى جوناس الفتى الفرنسي، يسرد يونس مشهد جريمة قتل ألمورو على يد والده يقول: " لمعت شفرة خنجر جزار في قبضته ...خرج أبي في العتمة .سمعت رفس قدميه يتيه في الفناء ،أشبه بدعاء وسط زوبعة رملية ....انتشر الخبر في جنان جاتو كما تأكل النار الهشيم ....ألمور مات ،انبسطوا أيها الناس الطيبون .ألمور لن يزعج أحدا ؛لقد بقر شخص ما أحشاءه بضربة خنجر."[3] يونس عاش رعبين حقيقيين وفي كل محطة منها يتأثر نمط حياته ، ليرسم السارد منعطفا في مسار سرده لحياته أولها كان الرعب الذي خلفته النيران التي التهمت المحصول وبذلك نزح من الريف نحو مدينة

[1] الرواية ،ص 47.

[2] الرواية ،ص 47.

[3] الرواية ،ص 48.

وبالضبط في جنان جاتو، ولا يفوتنا الذكر أن هذه الأزمة لم تأثر في تغير هوية يونس مقارنة مع أزمة حادثة السرقة من قبل ألمورو لتكون الوسيلة التي انتقل بها يونس من فتى يعيش ضمن أسرته المهمشة في جنان جاتو ، إلى فتي يعيش في مدينة كولونيالية في ريو صالادو ضمن أسرة مزدوجة الهوية " العم ماحي صاحب الهوية جزائرية ، والزوجة جرمان صاحبة الهوية الفرنسية ." الأثر واضح في سرد مسار لحياة يونس حيث أن هذه الهوية تتلاشى وتضعف الروابط التي جمعت يونس بجميع شخصيات الانا فكلما ابتعد يونس عن عائلته ، واندمج ضمن شخصيات الآخر، إذ يصعب حصر هويته في زاوية معينة ،نظرا لعمق الاختلال في الانتماء لأنها تارة لها معالم مضمرة في شخصية يونس ، وتارة أخرى. لها معالم واضحة ومسيطرة ضمن شخصية جوناس على مستوى طيات الرواية كشخصية مركزية أخذت الحيز الأكبر في مسار حياته بداية من سن عشر سنوات إلى أخرى ايام حياته.

*** الحلاق :**

رجل يمتهن الحلاقة شخصية مسالمة ومتسامح في أجرة عمله في بعض الحالات التي تصادف أثناء العمل ، كما يمكن القول أنه شخصية نشطة وفعالة ضمن رجال جنان جاتو ، تتجسد شخصية الحلاق بوضوح من خلال سرد يونس تعامل الحلاق مع زبائنه وكنموذج عن ذلك تخليه الدائم عن أجرته للشيخ الذي إعتاد على تملصه من دفع المال يقول الحلاق " هيا ياعم جابري ، أعط الريح لقدميك .ماعزك في انتظارك الان ....وفق الشيخ على مضض، تأمل نفسه في طرف المرآة، ثم فتش مليا جيوبه .قال في نبرة أرادها **الضمير:** أخشي قد أكون قد نسيت مرة أخرى نقودي في البيت.

هكذا دائما، ياعم جابري ....قال الحلاق مستلما : لا عليك .الله هو الرزاق ."[1] المتأمل لسرد يونس للشخصيات التي عايشها ، بطريقة حيادية بدون الميل إلى طرف ما ربما يبارك يدل هذا على شخصيته جامدة أو ربما أنه نموذج زئبقي لا يمكن ضبطه لأي

[1] الرواية ، ص 42.

فئة ينتمي ؟ . او مدى ضعف الأثر الذي تركه الانا على يونس ،فهو لم ينجح في استحواذه كما فعلت باقي الشخصيات سواء المركزية أو هامشية للآخر في الاستيلاء على حياة جوناس ومدى الروابط القوية التي جمعته بهم .

يقول يونس في مقابلته الأخيرة الحلاق " الحلاق ،فلم يتغير .سوى أنه يحمل أثر ضربة شفرة على الوجه ."[1] تظهر بوضوح برودة يونس في سرد حالة الحلاق ،فهو لم يكترث لوجود ندبة على وجهه الحلاق ، ولم يكلف نفسه ليسأل عن ما حدث للحلاق حتي أصبح يحمل ندبة على مستوى الوجه !.

نلمس بوضوح اتساع الفجوة وتلاشي روابط التي جمعت يونس بباقي الشخصيات في جنان جاتو سواء المركزية أو الهامشية منها ، والتي كانت قوية متينة عند وصول يونس للعيش معهم وهذا يدل على وجود أزمة هوية استحوذت على يونس حينما انتقل للعيش عند عمه ومدي تأثير الآخر على شخصيته حيث اننا نلمس تبلور هويته يونس من خلال الروابط القوية التي نسجها مع شخصيات الآخر سواء المركزية أو المهمشة والتي تتوالى بين الرغبة في الاندماج في الهوية المركزية ومتمثلة في جوناس ، والهوية المضمرة والمجسدة في يونس.

2-شخصيات الآخر:

أ-الهامشية:

-**السيدة كازيناف:** والدة إيميلي امرأة جميلة ، كان زوجها مدير سجن في غويان اختفى حينما كان يطارد سجناء فارين من السجن وسط الأدغال . أقامت علاقة محرمة مع جوناس حينما استدرجته لفراشها وهو في سن السابع عشر من العمر ، تعتبر هذه العلاقة نقطة تحول في مجرى الأحداث وفي المسار الذي نهج به جوناس حياته ، كانت هذه العلاقة منعرجا حقيقيا في بلورة مسار حياته فهي حاجز منيع عاق ارتباط جوناس بإيميلي ، لأن اجتماعهما خطيئة محرمة تتمثل في زنا المحارم.

[1] الرواية ،ص 95.

تقول السيدة كازيناف لجوناس " أتوسل اليك ،برب العالمين ،رب عيسى ومحمد أقسم لي بأنك لن تشجعها . أن هذا يكون بشعا ، لا أخلاقيا ، وقحا بشكل لا يصدق، غير مقبول إطلاقا ."[1]

شخصيتها: امرأة قوية ،سيدة نفسها. علاقتها بجوناس أثرت كثيرا على حياته وحياة إيميلي ، إذ يمكننا القول أنها أحدثت منعطفا في تحديد مسار هوية جوناس حيث أنه ضحى بعشقه لإيميلي خوفا من ارتكاب جريمة التي تتجسد في زنا المحارم.

كما نلمس ضعفا التبس شخصيتها بسبب العلاقة التي جمعتها مع جوناس ، خوفا من تكرر نفس السيناريو الذي جرى مع جوناس ،يحدث لإيميلي.

ب-أندري:

من بين المقربون من جوناس ،شاب غني يمتلك سيارتين وخادم (جلول)، أندري نسخة من أبيه جيم جيميناز صورا يقول جوناس " لم يجد أندري ما يفعله أفضل من تعنيف خادمه جلول .لقد بعثه ثلاث مرات الي القرية تحت شمس قائظة ،المرة الأولى ليشتري له سجائر ، المرة الثانية علبة كبريت ، المرة الثالثة لأن السيد طلب سجائر الباصطوص وليس الشاربونتيي."[2] كعاته جوناس يتبنى الصمت والحيادية ، لم يحرك ساكنا اتجاه ما يحدث على مرئ من عينيه ، أندرى لو لمس الانتماء الواضح ليونس اتجاه هويته لكان قد تعامل بحذر مع جلول في حضرة وجود يونس ،وتصرفه هذا دليل على عدم احترامه ليونس وكل ما يخصه الذي يتجلى في شخص جلول، وهنا تظهر بوضوح إشكالية يونس فهي أزمة هوية جعلت منه فردا مفكك الانتماء والمشاعر معا ، لأن عدم ثورته على أندري يثبت تقبله فكرة هوية جوناس،على حساب هوية يونس وبذلك تميل دفت الميزان في هذا الموقف لهويته الطاغية عليه وهي شخصية جوناس الفتى الفرنسي.

[1] الرواية ،ص 168.

[2] الرواية ،ص 102.

اندري شخصية استعمارية تظهر مدى حقد واحتقار الآخر لذات الانا ،متغطرس في حق الانا المستعمرة .يقول جوناس :" بقى لومي له خفيفا، برغم الأقوال الجارحة التي يصرح بها اتجاه العرب ولكن تعامله معي كان حذر."[1] يدل كلامه هذا ، على وجود جانب مضمر في شخصية يونس اتجاه انتماءه العربي لكنه لا يعطى الكثير من الاهتمام لهذا الجانب في حالة الكلام الجارح لم يكن موجهه لو مباشرة بل موجه بصفة خاصة للعرب !.

جوناس شخصية كونت روابط وعلاقات جد متينة مع شخصيات الكولون ،بصفة رئيسية كحجرة أساسية في بلورة هويته ،بالرغم من أصوله الجزائرية في وقت كانت شخصيات الانا تعيش ظلم الاستعمار من جوع وفقر وجهل وأمراض ...الخ وكل الأزمات التي حلت بأهالي جنان جاتو؛ كان هو يعيش السعادة من مغامرات مع أصدقائه ومنخرط ضمنهم كأن الجانب المقهور للأهالي والأراضي لا يخصه أبدا، وهذا دليل يبرهن على الضعف الذي استحوذ علي شخصية يونس المفككة لتحل محلها شخصية جوناس المتماسكة المندمجة ضمن المجتمع الاستعماري .

2-شخصيات الأنا:

أ-المركزية

-يونس:

فتى ترعرع في الريف ، ضمن عائلة مزارعة فتح عيناه في أرض يعشقها والده إلى حد النخاع ، والدته امرأة تمتلك من جمال والحياء ما يأهل يونس أن يأخذ الشجاعة من والده والأخلاق من والدته ، ولا يفوتنا ذكر أخته زهرة فتاة صغيرة معاقة لا تسمع ولا تتكلم ; بينما يونس سليم البنية لكن معاق على مستوى الهوية فهو دائما لا يبالي لا يأثر ولا يتأثر يقول يونس " كنا نعيش منزوين في أرض أشبه بأشباح سلمت القدر ، في صمت فلكي لأولئك الذين ليس لديهم مهم يقولونه : أمي في ظل كوخها، منحنية فوق قدرها ..أبي يحب البقاء وحيدا متشبثا بمحراثه ، شفتاه بيضاوان من الزبد أحيانا ..أبقي الساعات الكاملة أراقبه

[1] الرواية ،ص 101.

، منبهرا من صلابته واستبساله ."[1] في سنوات الاولى من عمر يونس نلاحظ تمسكه الشديد بوالده عيسى ،ومدى إعجابه بقوته وصلابته في مواجهة قساوة الحياة ؛ علاقة لا يمكن تحطمها خاصة وأن يونس رغم صغر سنه إلا أنه عايش معاناة والده في محافظة عليهم واسترجاع أرضه المرهونة بكل قوة وعزيمة .

بالرغم من متانة العلاقة التي جمعت يونس بوالده إلا أننا نلمس فجوة خلخلت شعور يونس منذ الصغر من خلال عدم اظهار والده الحب وحنان اللذين يحتاجها طفل بسن يونس يقول " كنت أحب أن يقول أبي لي كلمة لطيفة أو أن يعتني بي دقيقة."[2]

هذه الفجوة اتسعت وأخذت منعطفا نحو الهاوية ، فكانت سبب إشكالية هوية البطل بحيث استحوذت على يونس في تحديد كينونته وانتمائه ، بداية من انتقاله للعيش في منزل عمه وبمرور الايام ، قطع صلته بوالده والدته وكل ما يخص جنان جاتو، لذا يمكننا القول أن تحطم هذه الروابط راجعة إلى حالة شعورية أو ربما إلى مدي قدرة الآخر في مسح هوية الانا عن طريق سلخ هويته بطريقة احترافية ، تجعله ينغمس ضمن مجتمعهم كأنه ولد من رحم الكولون .

- يونس تلقائيا وتدرجيا بدأ ينعزل عن أسرته، وكل شخصيات جنان جاتو ، على الرغم من سرده لنمط حياته سواء في الريف أو عندما انتقل للعيش في جنان جاتو، وعن كل العلاقات التي جمعته بشخصيات في تلك الفترة سواء على مستوي الأسرة أو نسوة الحوش أو رجال جنان جاتو ؛ كأنه يسرد هويته المتأصلة في أعماقه ،فالمنطق يوحي في تحديد مسار هويته انطلاقا من كل الظروف التي سيكون لها الفضل في تأصيل هوية واحدة مبنية على مبادئ صنعتها في شخصية البطل يونس انطلاقا من 1930 فترة انتشرت فيها الامراض والأوبئة والبؤس ينهش العائلات بوحشية في نفس الوقت شهد على صلابة والده في استرجاع الأرض ، ليعيش كارثة اشتعال المحصول ونهاية حلم استرجاع الأرض المرهونة يقول يونس " في

[1] الرواية ، ص 8.

[2] الرواية ، ص 8.

الأيام ١٩٣٠كان البؤس والأوبئة يبيدان العائلات والحيوانات بعدوانية عجيبة فيجبران الناجين على الهجرة أو التشرد "[1].

المفترض أن يونس مدرك لكل الأوضاع المزرية التي يعيشها الأهالي عامة وأسرته خاصة ، تدفعه للتمسك بهويته الأصلية وتوطد علاقته بمحيطه وأهله ،لكننا سنشهد أزمة هوية البطل انطلاقا من انتقاله للعيش في مدينة ريو صالادو يقول يونس :" يقطن عمي في المدينة الأوربية عند نهاية زقاق معبد بالإسفلت ،تحيطه منازل صلبة أنيقة وهادئة ،بسياحات من الحديد المطرق والنوافذ بمصرعين خشبيين .كان زقاقا جميلا بأرصفة نظيفة ."[2] يونس تأثر كثيرا بمدينة ريو صالادو عامة ، وبغرفته خاصة من خلال الاغراض الموجودة كعلامة استيلاء ثقافي على فكر فتى عربي إذ يمكن القول إن أزمة البطل بدرجة الاولى ، أزمة مكان و انتماء وتنكر للمحيط الذي عاش فيه ظروفا مزرية عاشها من جوع وحرمان وجهل سواء في الريف أو جنان جاتو ، بمجرد انتقاله للعيش في مدينة ريو صالادو بدأ بإلغاء انتمائه لأهالي جنان جاتو عامة وأبيه وأمه وأخته خاصة ، حيث قطع كل الروابط بمحيطه السابق. بدأ تفكك شعوره بالانتماء في الاتساع والابتعاد وبينه بين جميع الشخصيات، ويظهر ذلك من خلال طريقة سرده لمأسيها بكثير من البرودة وعدم المبالاة مقارنة لسرده لمأساته مع الاخر بطريقة ،توحي أنه جوناس الفرنسي صاحب الهوية الفرنسية فيجسدها في قالب يعجز على المرء فصله عنهم من حيث الانتماء والثقافة. وكنموذج عن ذلك مقابلته الأخيرة لوالده وهو في حالة سكر يقول جوناس: "رأيت رجلا سمينا غاضبا يمسك متسولا من الرقبة وحزام السروال ويدحرجه علي الرصيف .....كان سكرانا إلى حد يصعب عليه الوقوف بسرعة ....عندما رفع رأسه باتجاهي، تفتت وجهه إنه أبي .[3] هذه الحادثة لم تأخذ الكثير من شعوره وتفكيره لأنها دامت لأيام فقط مقارنة مع حادثة انفصاله عن حبيبته إيميلي وفراق صديقه جان كريستوف اللذين أخذا التفكير وبحث عنهما حياته كاملة ،حيث

[1] الرواية ، ص 7.

[2] الرواية ، ص 50.

[3] الرواية ،76,66.

أن إيميلي هي القضية الأساسية والمحورية ليونس بعد العلاقة المحرمة التي أقامها مع والدتها السيدة كازيناف، لأنه أجبر على قطع عهد بأن يبتعد عن محبوبته إيميلي ومن هنا تنشأ الأزمة الأساسية لجوناس وهي فراق إيميلي الذي عاش معها من فترة الشباب الى اخر يوم في حياته على الرغم من تفكيره الدائم بها حتي بعد زواجها من صديقه ة سيمون، وكذا بحثه عنها بعدما غادرت ة الجزائر غداة استقلالها. نلمس هنا السيطرة الكامنة لشخصية جوناس في مجرى الأحداث وقوة الروابط التي جمعته مع الاخر تخاطبه إيميلي : " لا تمتلك مثقال ذرة من الإنسانية ،أنت أسوء شيء حدث لي في حياتي ضربني في وجهي ، هزت كتفيها وهي تصرخ كي تغطي شهيقها ...ذهلت ولم أعرف ماذا أقول ، خجلت لما تسبب لها من عذاب ،كما خجلت لكوني لست إلا فزاعة مغروسة وسط العيادة .العنك يونس ولن أغفر لك أبدا ،أبدا .."[1]فارقة يعجز العقل عن تحليلها بمثل شخصية جوناس تارة (المركزية)، ويونس تارة أخرى (المهمشة)، بحث عن والده مرتين أو ثلاث ، وآخرها يبحث عنه كل عشر سنوات يراه سرابا يتمشى قريبا منه، بينما أمه زارها مرتين وبحث عنها وعن أخته مرة فقط لتعرضه لصدمة عند رؤية حدة ضمن نساء الما خور ، خاف أن يكون مصيرهما نفس مصير حدة يقول يونس : "حدة الجميلة ،حبي السري السابق هلوسة طفولتي الاولى ...كيف رست في هذه القذارة القبيحة ، هي التي كانت عند خروجها إلى الحوش تضيئه الشمس ؟"[2] رؤية لحدة علي هذه الحالة ، كان مجرد منبه اثار في نفسه خوفا عن أمه وأخته يقول يونس :" لم يكن بمقداري أن أنام .طول الليل وانا مضطرب البال تحت الغطاء، ورأسي يعج بصورة حدة العاهرة ".[3] نلاحظ في مواقف تظهر فيها شخصية يونس كعلامة سيميائية للهوية العربية من حيث العقلية المتأصلة في ذاته وهذا الموقف يظهر فيه يونس بصورة الرجل العربي الأصيل المتحفظ على عرضه وشرفه ومتجسد في أمه وأخته وفي مواقف أخرى تظهر شخصية جوناس وهو علامة سيميائية على الفتى الفرنسي

[1] الرواية ،ص 200.

[2] الرواية ،ص 110.

[3] الرواية ،ص 144.

المتحرر من كل القيود وأعراف المجتمع هنا يمكن القول أن هوية يونس تنوس بين هويتين مختلفتين في شخص واحدا ؛ أولها الهوية الجزائرية المهمشة ليونس ، التي تطوي في صفحات الاولى من الرواية وطغيان الهوية الفرنسية المركزية في شخص جوناس ويظهر هذا بوضوح من خلال بلورة السارد في تحديد مسار هوية البطل ،حيث أننا نلمس اختفاء الهوية الأصلية ليونس التي بدت ة متينة، سواء في الريف من خلال قوة العلاقة مع والده أو حين وصل يونس إلى جنان جاتو وسرده للشخصيات بطريقة مفعمة بالحيوية والحب يقول يونس " لم يكن في جنان جاتو الا الأطفال وأصحاب الأسرة القوية .الناس في أهمهم لم يكونوا سيئين لم يتمكن البؤس من تلويث روحهم ولا الشقاء من استئصال بساطتهم المرحة يعرفون أنهم في الحضيض الأسفل ،ومع ذلك لم يتخلوا عن التشبث بالرعاية الإلهية مقتنعين أنه في يوم ما سيتبخر النحس اللاصق بقفاهم وأن الامل سيولد من جديد من رحم رماده كانوا ناسا طيبين وأحيانا محببين ومسلين."[1] هذه الروابط بدأت تتلاشى وتختفي بعد استقرار يونس في ريو صالادو وتأثره القوي بالبيئة في مدينة كولونيالية الجميلة .

يقال: "الإنسان ابن بيئته " ومتانة الروابط القوية التي كونها مع أصدقاءه " جان كريستوف ، سيمون ، فابريس " خاصة الحب لإيميلي التي تمثل الحجر الأساسي لقضية جوناس ويونس معا يقول جوناس "احببت ريو صالادو كثيرا .فولمان صالسوم عند الرمان ، المالح في أيامنا .على كل حال ، لم أكف حبها ، وأنا عاجز عن تصور شيخوختي تحت سماء غير سمائها أو أنني. ألفظ انفاسي الأخيرة بعيدا عن أشباحها ."[2] عبارة "أنا عاجز عن تصور شيخوختي تحت سماء غير سمائها " هذه العبارة تحيلنا الي إشكالية هوية البطل : ما هو السبب الحقيقي الذي جعل يونس يتمسك بمدينة استعمارية لا تمده بأي صلة عرقيا ولا دنيا ؟.

- هل أزمة هوية البطل تنكر للذات ؟ .
- هل أزمة الهوية يونس نفسية ؟ .

[1] الرواية ،ص 35,34.

[2] الرواية ،ص 85.

- ما هو سر الحقيقي لتمسك يونس بالآخر على حساب الانا ؟

كل هذه الأسئلة تنجر وراء إشكالية واحدة تمكن في ذات الانا بغض عن سبب أزمة هوية يونس التي تزدوج بين هويتين الاولى هامشية مضمرة ليونس ، والثانية مركزية مفعمة لجوناس .

يقول جوناس " هناك جان كريستوف لأمي ،ستة عشر سنة...هناك فابريس اسكاماروني الذي يصغرني بشهرين ...وهناك ايضا سيمون بن يامن من يهود الجزائر خمسة عشر سنة مثلي تماما.....من جهتي واصل مصيري مساره .لقد صرت رجلا : قامتي بحوالي ثلاثين سنتيمترا ...لحق صيف 1942ونحن على الشاطئ نتسفع تحت الشمس ."[1] واصل جوناس حياته متمتعا بصحبة أصدقاءه ملتحم معهم بروابط متينة ، لا يمكن للزمن أو الظروف تفكيكها بالرغم من المشاكل التي حلت عليهم خاصة بعد استقلال كل فردا بحياته الخاصة ، إلا أن جوناس ظل وفيا لهم متمسكا بهم مقارنة مع أسرته التي قطع الحبل السري بها ، يسرد يونس شخصيات جنان جاتو مصيرها المأساوي بمشاعر متجمدة غير مبالية لحالتيهم بل يصفهم ،بصفتهم الآخر بالنسبة إليه بكل برودة واللامبالاة يقول جوناس : " بدا لي جنان جاتو أنه تغير ...تعرفت على ساق عند عتبة حانوته لقد ضعف الشقي كثيرا وأدركته الشيخوخة ....أما الحلاق ،فلم يتغير .سوى أنه يحمل أثر ضربة شفرة على الوجه لم يكترث كثيرا بوجودي ... قطبت بدرة عينها عندما رأتني أتقدم نحو الفناء .....الان فقط تتذكر أن لك عائلة ."[2] هنا نلمس شخصية جوناس التي لا تمد بأي صلة لشخصيات جنان جاتو يجسد مشاعر الآخر المتجمدة اتجاه الانا كأن جوناس هنا يشبه جيم صينازا. الشخصية الكولونيا لية بامتياز في تعاملها مع الانا مسلوبة الحرية ،يردف قائلا حول المقابلة التي جمعته مع والدته " لم تتفاجأ أمي وهي تجدني جالسا في الفناء .تصرفت كما لو أنها لا تعرفني . حينما وقفت لأسلم عليها ،تراجعت قليلا الى الوراء ،لم ترض،أن

[1] الرواية ،ص 101–100.

[2] الرواية ص 96,95.

تضمني بذارعيها."[1] الظاهر أن والدته غاضبة من يونس جراء تخلى عنهم بكل بساطة ،يسرد جوناس الحالة المزرية التي تعيشها والدته بكل حيادية ،بمشاعر جامدة دون أن تترك أي أثر لديه ويبرر أفعاله بقوله "كانت أمي تتكلم بسرعة ، بسرعة عجيبة بارتعاشات في الصوت ولمعان غريب في العينين .ويداها ترسم في الفضاء أوهاما عظيمة لو كنت أعرف أنها تحدثني للمرة الأخيرة في حياتنا ،لكنت صدقت مجموع خرافاتها وبقيت بقربها ولكن كيف لي أن أعرف ذلك ؟ هي التي أصرت علي بالذهاب الالتحاق بوالدي الجديدين دون تأخر ." [2] يمكن القول أن اشكالية أزمة البطل يونس تمكن على مستوى هويته وإنسانية وانتمائه ءه وقضيته الوطنية التي لم نلمس له أي موقف قرره بمحض إرادته ،حول الصراع القائم بين طرفي المعادلة الكولون والجزائريين وإنما أنضم للقضية الجزائرية مجبرا فقط من طرف المناضل جلول يقول يونس : " نهاية أفريل 1959كانت نيران الغروب تلحس السماء ....أبعد الفتي فوهة المسدس ودفعني إلى داخل الصالون .قال له جلول :شكرا صغيري لقد قمت بالمهمة على أحسن وجه. انصرف الان ..."[3] أثر حادثة إصابة النقيب هواري ،اضطر جلول أخذه لصيدلية جوناس لتلقى العلاج ،فكانت هذه النقطة بداية مساهمة يونس في مد يد العون للمناضلين ليس مخيرا وإنما مجبرا ؛ ويظهر هذا من خلال الفترة التالية قال جلول: " سنبقى عندكم بضعة أيام ، الوقت الكافي كي يستعيد النقيب قوته .غدا ، ستفتح الصيدلية دون أن تغير شيئا من عاداتك .أما السيدة ،ستبقي معنا هنا .بالنسبة لشراء المئوية وأشياء أخرى ، ستقوم بها أنت .تخرج وتدخل مثلما شئت ولكنني إذا رأيت حركة مريبة من هنا أو هناك ،تعرف ماذا ينتظر كما ..للمرة الأولى نمنح لك فرصة ذهبية لتخدم شعبك ،فحاول أن لا تخيب أملنا."[4] هنا نلمس هوية يونس الجزائرية ، بالرغم من الظروف التي دفعته للوقوف جانب القضية الجزائرية ،وفي الجانب الآخر نلمس هوية جوناس الفرنسي بجانب

[1] الرواية ،ص 97.

[2] الرواية ص 99.98.

[3] الرواية ،ص 238.

[4] الرواية ،245.

الكولون ، ويظهر في سياق التاريخي لمجازر 8ماي 1945.بسب خروج الشعب الجزائري في مظاهرات سلمية للمطالبة باستقلال فتحولت إلى مجازر بشعة في حق شعب أعزل ، في كل من المدن والقرى الجزائرية " خراطة ، قالمة ، سطيف عين تموشنت ...الخ. ببرودة سرد جوناس للأحداث كأنها مجازر لقطيع من الغنم وليس في حق أبناء وطنه والدماء التي سالت على الأرض كنهر جارف ، هي نفس الدماء التي تجري في عروقه؛ الأراضي مغتصبة تحت قبضة الاستعمار الذي تبني جميع أنواع القمع في حق الأهالي حيث انتشرت الامراض مع شبه انعدام للقطاعات الصحية ، والجهل مع منع تام من تدريس الاطفال اللغة العربية، فكانت بعض الزوايا تحاول تدريس الاطفال للقرآن الكريم للمحافظة علي اللغة العربية ،و حرق للأراضي الزراعية سياسية اتبعتها الاقدام السوداء لتحطيم البنية الاقتصادية وتجويع الأهالي للخضوع لأوامرهم وتهجير الأهالي، وما عائلة يونس إلا نموذج حي للهجرة هروبا من شبح الجوع ،نحو جحيم أسوء جنان جاتو في حين جوناس نموذج مثالي سعى إلى تحقيقه الكولون إلى زرع هوية جديدة لفئة جزائرية أنشأتها تحت رعايتها، لذلك منعت من تدريس اللغة العربية في المدارس انذاك والهدف الرئيسي هو محو ثقافة أمة كاملة وتحريف هويتها بسلخ الهوية الجزائرية.، وعليه يمكن أن نعدّ جوناس مسلوخ الهوية من حيث الفكر واللغة والانتماء فهو يمثل عينة نجحت فرنسا في زرعها بهدف خدمة ت مصالحها مستقبلا ضمن انسان عربي الأصل معلن ولاءه لخدمة ت فرنسا ومصالحها ،وان لم يوضح السارد ذلك بوضوح لكن قارئ ما بين السطور ورغم محاولة السارد إخفاء ما يحمله حبر قلمه ضمن صفحات الرواية الا أن سيميائية العنوان أكبر بوابة نعرج، بها الي خبايا النص ؛ الليل علامة سيميائية عن الاستعمار الفرنسي ،بينما النهار علامة استقلال الجزائر والعنوان الكامل هو علامة سيميائية فضل فرنسا فترة الاستعمار على الجزائر . يقول جوناس :" الثامن ماي 1945.في الوقت لذي كانت الأرض بأسرها تحتفل بنهاية الكابوس ،ينفجر كابوس اخر في الجزائر ،أكثر صاعقة من الوباء ،اكثر وحشية من القيامة .تحولت الافراح إلى مأتم .. قمعت الشرطة مسيرات من

أجل استقلال الجزائر."[1] يسرد جوناس الأحداث بكل برودة ؛شخصية يونس متضاربة الآراء والمواقف إذ هناك شخص واحد يحمل شخصيتين مختلفتين بهويتين متضاربتين كاختلاف الليل عن النهار علامة أيضا ، عن اختلاف يونس عن جوناس وفضل الليل عن النهار هو فضل الاستعمار الفرنسي عن الجزائر المستقلة. ،اما من ناحية نماذج كجوناس المندمج ضمنهم أو من الناحية التكوينية له ثقافيا وفكريا .ليبقى جوناس محصور في زاوية ضيقة تفرض هيمنة وسيطرة الآخر على تفكيره وكيانه لسنوات طويلة، حيث عاش مأساة داخلية كان سببها الآخر وليس الآنا المهمش من ناحيته يقول جوناس:" "كنت غاضبا ،غضب داخلي ،صامت ، جارف .كنت غيورا لرؤية عالمي يتفكك حولي ،غيورا حينما يتجول سيمون وإيميلي في الشارع الرئيسي ، ..غيورا من هذه الهيبة التي تلف زوج جان كريستوف وإيزابيل وهما يمشيان .."[2] يونس أعتبر الآخر عالمه الأساسي من خلال عبارة ،"كنت غيور لرؤية عالمي يتفكك حولي " الآخر هو عالم يونس الفتى العربي !.حزين لفراقهم وتفكك علاقاته والروابط التي جمعته بهم ولم يول ذرة حزن لفراق والده وأمه وأخته حيث تركهم على رف ذكرياته عبارة عن أطياف تحوم في جحيم جنان جاتو .

ماحي : عم يونس تولى مسؤولية تربية يونس وإحتواءه، شخصية قوية متشبع بالثقافة الفرنسية ،حاصل علي شهادة صيدلي من الجامعة الفرنسية ومتزوج من امرأة فرنسية ،صاحب مبادئ بالرغم البيئة الفرنسية التي يعيش فيها، واضح الهوية والانتماء مخلص للقضية الجزائرية يقول يونس " كان منشغلا بالجوانب النظرية للتطورات السياسية ،ولم يقدر حق قدرها خطورة التزاماته وتجنده ولا يعرف من النضال الا الخطب المتحمسة والورش السرية التي كان يساهم بتمويل قسط منها والاجتماعات السرية كان مسئولو الحركة ينظمونها في منزله .كان وطنيا في القلب أقرب إلى المبادئ النظرية منها إلى حركة الجذرية التي كان يمارسها مناضلو حزب الشعب الجزائري ."[3] العم ماحي تربطه روابط قوية ،

[1] الرواية ،ص 130.

[2] الرواية، ،ص 226– 225.

[3] الرواية ،ص 80,79.

بشخصيات سواء مع الانا و الآخر لكن الرابطة القوية والأساسية تكمن في القضية الجزائرية كمحور أساسي أخذ مساحة واسعة من تفكيره ، حيث تعرض للسجن بسب الاشتباه به وإثرها دخل في أزمة نفسية حادة، لينتقل إلى ريوصالادو ويستقر هناك ليكمل مسار حياته في مساهمة في دعم القضية الجزائرية ،ثم تعرض الي أزمة قلبية متأثر بمجازر 8 ماي 1945 بشعة في حق الشعب الجزائري الأعزل يقول يونس: " كاد عمي ينهار تحت سعة الكارثة التي أحزنت الشعب المسلم ذات مساء، ضغط بيده على قلبه وسقط أرضا ...شرح الطبيب لجرمان زوجك تعرض لنوبة قلبية ،سيدتي .ولم يستعيد وعيه بعد."[1] . في سنة 1954شاء القدر أن ينهي حياة ماحي قبل أن يعيش فرحة ت الاستقلال يقول يونس " ذات ليلة ،تمدد على سريره وطلب رؤيتي تضاعف شحوبه وحينما أمسك بمعصمي أحسست يده باردة ، متجمدة تقريبا ....لحظة الفراق الأبدي جزء لا يتجزأ من الحياة التي نعيشها إلا حينما قامت جيرمان بإغلاق عيني زوجها ."[2] عانقت روحه الطاهرة عنان السماء قبل خمسة أشهر من اشتعال لهيب ثورة تحرير الجزائر.

جيرمان: زوجة العم ماحي فرنسية الجنسية ، تولت مسؤولية تربية يونس فقامت بتغير نمط حياته من الفتى يونس إلى الفتى جوناس ،كانت سيدة لها يد في تغير هوية يونس بطريقة احترافية دون إلحاق الأذى على مستوى ديانته ، لذا نعتبرها شخصية مؤثرة لها كيانها وفي نفس الوقت تحترم الحرية الشخصية اي تحترم الخصوصية الدينية ،كما أنها زوجة مخلصة وتحترم انتماء زوجها وقضيته معا ،دون أن تعارضه في ذلك رغم أنها فرنسية والعم ماحي جزائري ومعارض للكولون الفرنسي ،خاصة أنها تنحدر منه جرمان وهنا نلمس التوافق وتعايش بينها وبين زوجها ويونس ؛ دون أن تتأثر بالاتجاهات المختلفة. يسرد يونس مدى رحابة صدر جيرمان وتقبلها الانا بكل روح رياضية من خلال موقفها يونس يقول :_"قال عمي بصوت مرتعد : عزيزتي جرمان الدمعة المترددة على حافة أهدابها والعاكسة لعميق التأثر وسالت على خدها بطفرة واحدة .قالت وهي حاول خنق شهقته : جوناس

[1] الرواية ،ص 131.

[2] الرواية ص ،209.

...جوناس ..لو تعرف كم أنا سعيدة ."[1] وعليه جيرمان شخصية قوية بالرغم من اختلاف هويتها مع الانا حيث استطاعت المحافظة على علاقتها بهما (ماحي ، يونس)،استطاعت احتلال مكانة خاصة لديهما بفرض وجودها، فهي أثرت على هوية يونس من خلال التربية التي منحتها له من جهة وحافظت على خصوصيته الدينية من جهة أخرى من حيث احترامها لديانته كونه مسلما ،كما أنها حافظة على هويتها وفصلتها على هوية زوجها الخاصة ، يمكن القول أنها شخصية تفصل هويتها عن هوية الانا ضمن احترام الخصوصية الذاتية .

جلول: شخصية نضالية بامتياز عاش نفس ظروف يونس العائلية فهو ينحدر من عائلة فقيرة معدمة، يعيلهم ويسهر على توفير المال لهم يقول يونس: " ظننت أنني لمست عمق البؤس في جنان جاتو، كنت مخطئا إنن بؤس الدوار الذي تسكن به عائلة جلول يتجاوز كل الحدود."[2]

عند دراسة شخصية جلول نلمس المأساة التي عاشها ، تتضاعف مع مأساة يونس التي عاشها لفترة قصيرة في جنان جاتو ، فجلول اشتغل خادما لآندري وتحمل الظلم والتعسف والتعذيب وجميع أنواع التعسف ومع ذلك كان متمسكا بهويته الجزائرية يقول يونس " كان جلول يعرج ووجهه متورم وشفتاه مجروحتان وعين زرقاء .قميصه مخطط بسطور حمراء ، ربما اثار ضربات سوط .من وضعك في هذه الحالة ؟ نظر جلول أولا حوله ،كما أنه خشي أن يسمعه احد ،ثم ثبت عينه جيدا في عيني ،وقال بنبرة قاطعة : آندري ."[3]جلول كان دائما يعتبر يونس جزءا منهم ، يحفزه بكل الوسائل للرجوع الي هويته الحقيقية ومناصرة قضيتهم يقول جلول ليونس : " لا يمكنك أن تفهم هذه المسائل . أنت منا ، ولكنك تعيش حياتهم .حينما تكون أنت العائل الوحيد لعائلة ...." [4] عبارة "أنت منا ، وتعيش حياتهم " تظهر

[1] الرواية ،ص 51.

[2] الرواية ،ص 133.

[3] الرواية ،132– 133.

[4] الرواية ، ص 135.

مدى حجم الكارثة التي يعيشها يونس ؛جزائري الأصل(يونس)، فرنسي الثقافة (جوناس) هذه تشكل مفارقة في بلورة مسار هوية يونس .يقابلها بوضوح قوة شخصيته التي تنبعث منها الأصالة والمتانة لتمثل نموذج الحي لرجل شجاع وشهم ، لا تقهره الظروف يقول يونس " لم يكن جلول الا في العشرين من عمره ، ولكن قوة سرية تنبعث من شخصيته ، ونضج يبهرني ...اكتشفت فيه تقاسيم لم انتبه إليها سابقا .يملك وجها صلبا بوجنتين بارزتين ويظهر عزة نفس لم أتخيله قادرا عليه ."[1]

عمد جلول إلى التأثير على شخصية يونس، بلفت انتباهه إلى أصله الجزائري ووانتمائه لقضية الجزائر المدعو إلى المساهمة فيها ، وما أن جاءت الفرصة لجلول للالتحاق بصفوف الثوار انخرط ضمنهم وفرض شخصيته بجدارة .

يقول جلول " لست قاتلا ،جوناس. انا مكافح .أنا مستعد للتضحية بحياتي من أجل وطني "[2] يمكننا القول أن جلول مؤثر مباشر على جوناس ،ويستخدم مختلف الطرق مستفزا له للبرودة التي يمتلكها كأنه صنم مهمل في طيات الزمن –هذه حالة يونس في ذروة اندلاع الثورة المجيدة– يقول جلول مخاطبا لجوناس " أيها الشقي ! لا تفكر إلا في إنقاذ جلدك . إن الحرب التي تقضي على المئات يوميا لا تمسك . سأقتلك كما تقتل الكلاب لدي دين ...بالمناسبة ، هل يمكنك أن تفسر لي لماذا لا أستطيع أن أناديك يونس ؟."[3] الجملة الأخيرة توضح مدى استياء جلول من يونس وعلى مدى طغيان هوية جوناس على هوية يونس وهذا يرسم لنا مشهدا ترجيديا بطابع السخرية عن أزمة هوية يونس ، على حد تعبير جلول هل يمكنك أن تفسر لي لماذا لا أستطيع أن أناديك يونس ؟ نجح جلول في تحقيق مبتغاه وأجبره على الانخراط ومساهمته ة في مد يد العون للثورة المجيدة على الرغم الحياد السلبي الذي تبناه يونس اتجاه الحرب المجيدة يقول جلول ليونس " لست إلا جبانا . ترفض أن ترى ما يحدث في قرانا التي تقصفها الطائرات بالنابالم، وما يحدث في السجون حيث يشنق

[1] الرواية ، ص 133.

[2] الرواية، ص 24.

[3] الرواية ص٢٤٤.

أبطالنا ، وفي الجبال حيث يموت المجاهدون تحت رصاص العدو ."[1] كعادة يونس يتبنى الصمت ، ويكتفى بعدم الدخول في أي نقاش بصورة نمطية لشخصيته الطاغية عليها كتمان ما يختلج نفسيته. يقول جوناس " يأتي جلول عندي باستمرار لاستفزازي أعرف أنه لا ينتظر مني الا كلمة واحدة ليجرني في الوحل ،لذلك التزمت الصمت .[2] موقف يونس اتجاه أبناء وطنه وقضيته مخجل جدا ، لدرجة أنه يصف انضمامه لثورة بالوحل ، تعجز كلمات عن وصف مدى تواطؤ يونس اتجاه وطنه وبرودة أعصابه !. صمته وتملصه من التزامه اتجاه الثورة ، حتى وقع تحت قبضة جلول الذي أرغمه على توفير الدواء وعلاج المصابين دون أن يعارض يقول يونس " بعد شهور اكتشفت رسالة بلا طابع بريد ودون مرسل إليه بين بريدي .بداخلها ورقة منزوعة من كراس مدرسي تحوي قائمة الأدوية ...اشتريت الأدوية المشار إليها ووضعتها في علبة كرتونية ...سلمت العلبة الممرض ،اغلقت باب الدخول وصعدت إلى غرفتي ."[3]

استطاع جلول جر جوناس من الوحل الذي يعيش فيه ، وقدم له فرصة لخدمة الثورة المجيدة هنا تطغى شخصية يونس في خدمة ثورته وإن كان مرغما ألا أن التزامه الصمت وعدم التبليغ عن الثوار ، ربما يخفف الانتقادات والشكوك التي تحوم حول شخصيته المتضاربة تارة جوناس الجاحد اتجاه هويته، وتارة يونس بهويته جزائرية خاصة موقفه الرجولي عندما تم القبض عليه بتهمة مد الأدوية (الفلاقة) يقول يونس " سجنوني في زنزانة كريهة الرائحة ، وسط الجرذان والصراصير .أراد كريمو أن يعرف من هو الفلاقة ، ومنذ متى أمونه بالأدوات الصيدلية أجبته بأنني لا أعرفه ....ينتظر كريمو الليل كي يعود إلى الهجوم بتعذيبي ولكنني قاومت ولم أقل شيئا ."[4] من خلال هذه الحادثة استطاع جلول اسقاط الغموض الذي يلتبس شخصية يونس ، نجح جلول في إظهار شخصية يونس من خلال

[1] الرواية ،ص 47.

[2] الرواية ،ص 247.

[3] الرواية ،ص 250.

[4] الرواية ، ص 252.

خوضه هذه التجربة بمفرده التي من خلالها يظهر معدن يونس الحقيقي ، المخفي وراء شخصية جوناس المزيفة. وعليه يمكننا القول أن شخصية جلول قوية لها أثرها على مستوي الثورة المجيدة حيث رفع السلاح فيه وجه المستعمر الفرنسي وكذلك توج ليشهد الاستقلال ، كما أنه أثر كثيرا على شخصية يونس وأسقط الكثير من الغموض حول شخصيته المزدوجة وأظهر مدى ضمور هوية يونس في أعماقه ، وأن الصمت الذي تبناه يونس ربما راجع لكون يونس يعتبر نفسه يونس وجوناس معا في شخص واحد ولا يمكن الفصل بينهما الا في مواقف نادرة الحصول كموقف الذي سبق ذكره .

نهاية حياة البطل جلول كانت مأساوية ، ولا تليق لرجل شجاع وشهم مثله ،فهو عبارة عن رمز من رموز الثورة ونموذج للرجل الجزائري الثائر من أجل كل شبر من أرض الوطن ، شخصية عظيمة لا يقهرها لا مكان ولا زمان يقول جوناس " تم اغتيال جلول قرب منزله ،بخرطوشة بندقية صيد وهو جالس عند باب بيته يشم هواء الطري ."[1]

إيميلي : فتاة فرنسية جميلة ، وابنة السيدة كازيناف، تمثل القضية المحورية حيث أنها استحوذت على مشاعر وافكار كل من يونس وجوناس معا في شخصية واحدة ؛ تتمحور حول حب يستحيل تحققه ؛ بسبب العلاقة المحرمة التي أقامها جوناس مع والدتها السيدة كازيناف التي استدرجته لفراشها باعتباره نزوة عابرة يقول جوناس: " أوقعت بي في لمح البصر .ذبت في نظرتها."[2]

هذه العلاقة كانت ضريبة كلفت جوناس الكثير من حياته فدفع ثمنها بخسارة لإيميلي من جهة ،ومن جهة أخرى جعلته سجين نزوة السيدة كازيناف. فكانت نتيجة هذه النزوة بناء حاجز منيع يمنعه من الاقتراب من إيميلي، وفي الجانب الآخر كانت إيميلي تتوسل اليه بقبول حبها له . فكان التجاهل والرفض محبطا لها دون أن تعلم السر الخطير الذي منعه من معانقة حبها. أرغمته والدة إيميلي أن يقطع عهدا بابتعاده عن ابنتها لان العلاقة بينهما محرمة (زنا المحارم)؛ والدين والإنسانية والتاريخ يدينها ويحرمها .

[1] الرواية ،ص 284.

[2] الرواية ص ، 124.

قالت السيدة كازيناف " السيد جوناس .إن حكاية إبنتي معك لا ينبغي أن تحدث ليس لها الحق ولا أي منطق الوجود ....ليست إيميلي الا طفلة صغيرة يخفق قلبها حسب تغير مزاجها ."[1] العلاقة التي أقامها مع والدتها نقطة محورية ، في تغير مجري الأحداث عامة وفى حياة جوناس خاصة وعليه هذه العلاقة حالت بينه وبين إيميلي ، ليضيع في متاهة الشوق والحرمان ، وفي نفس الوقت كان أصدقاءه يتنافسون في لفت إيميلي إلا أن حبها ليونس كان نمى وترعرع منذ طفولتها ،لم تضيع اي فرصة في ملاحقة يونس والتودد اليه يقول يونس " خلال كامل السهرة .....استسلمت أمام هجومات إيميلي المتكررة لم تكن يدها تبحث عني تحت الطاولة ؛كانت تقابلني وتحجب عني بقية العالم ."[2] في وقت جمعتها علاقة زائفة فابريس يقول جوناس " فابريس وإيميلي كانا جميلين حتى وإن بدا مؤكد أن سعادتهما تعرج من جانب .يمكن للعينين أن تكذبا ،ولكن النظرة لا ; ونظرة إيميلي ظهر عليها التعب ." [3]

إيميلي ضحية نزوة والدتها ومراهقة حبيبها يونس حيث أنه لم يتجاوز السابع عشر من عمره ، حاولت مرارا وتكرارا جذب يونس إليها لكنها فشلت في كل مرة ، وما زاد حزنها وآلامها عدم معرفة السبب الحقيقي وراء رفض يونس لها ، كان فابريس وجان كريستوف وسيمون معجبون بها ؛فتاة واحدة استولت علي جوناس وأصدقاءه، فكانت بمثابة فتنة وضعت كل واحد منهم في مسير معين ، خاصة حادثة القطيعة والفراق بين جوناس وجان كريستوف التي دامت 45سنة خلالها تجرع جوناس مرارة الخيبة طيلت سنوات ،لفارق صديقه جان كريستوف ، والحنين لأيام المغامرات .

قالت إيميلي:

" لست جارحة قلوب لم يكن في نيتي أن أحدث ضررا لأي شخص كان.

---

[1] الرواية ،ص 168.

[2] الرواية ، ص 171.

[3] الرواية ،ص 173.

-لا أصدقك.

-يجب أن تصدقني جوناس.

-لا مستحيل، لم تحترمي فابريس، بل تجرأت على لمسي تحت الطاولة في اللحظة التي كنت تبتسمين له. وبعد ذلك ،جرحت جان كريستوف بأشراكي في لعبتك الماكرة ..ماذا تريدين مني في نهاية المطاف ؟ لأقول لك أنني أحبك أنت جوناس ."[1]

جسدت إيميلي شخصية الفتاة العاشقة التي تصنع المستحيل من أجل الفوز بحبيبها ،فكانت وسيلتها إثارة الغيرة والانتباه لجوناس عن طريق أصدقاءه لكنها فشلت لأن السبب حقيقي وراء تهربه الدائم منها خوفه من وقوع كارثة زنا المحارم برغم من هيام جوناس بها. توضح إيميلي تصرفها قائلة : " لم أكن أرتمي في حضن هذا وذاك الا لتراني ، لم أكن أضحك بملء شدقي إلا لتسمعني ...لم أعرف كيف أتصرف معك ، كيف أقول لك أنني أحبك ."[2]

إيميلي صدها جوناس صدا منيعا، ووضع حواجز لا يمكن اختراقها، وفي نفس الوقت استطاعت إيميلي اختراق الروابط القوية التي جمعته مع أصدقائه ءه فكانت النتيجة سفر فابريس نحو مدينة وهران ، أما جان كريستوف فقطع أي علاقة أو ذكرى جمعتهما بينما اليهودي سيمون بن يامين فاز بإيميلي وتزوجها يقول جوناس " كانت الصرخة بمثابة تفجير ، وقد شلتنا أنا وإيميلي كان جان كريستوف : .....ابق حيث أنت جوناس ..لا تقترب مني إذا أردت أن لا أسحقك مثل ذبابة ." [3] حاول جوناس إيجاد صديقه ،ليوضح له سوء الظن به ، فشل دون جدوى في حين إيميلي استقرت مع زوجها سيمون ،وظل جوناس في متاهة بين فراق حبيبته وصديقته ، وخلال هذه الفترة التي تتوازى مع اندلاع الثورة وبعد الاستقلال الذي شهد فرار الاقدام السوداء غداة الإعلان عن الاستقلال مزامنة مع وفاة سيمون زوج إيميلي في حريق شب في منزل السيدة كازيناف ؛ جاء دور رحيل إيميلي واختفاءها

[1] الرواية ،ص 184.

[2] الرواية ، ص 185.

[3] الرواية ، ص 183.

يقول جوناس : " في ربيع 1962بحثت عن إيميلي كنت خائفا على إيميلي أنا بحاجة إليها .أحبها لأؤكد لها حبي ."[1] الذي سبب أزمة أخرى ليونس ليعرج في دوامة البحث عنها ، ثم يليها سفر جوناس إلى فرنسا في بعد استقلال الجزائر بسنتين يقول يونس " مارس 1964....هاهو عنوان إيميلي ،143شارع الإخوة جوليان .."[2]قابلته بالرفض والسد له ،لم تغفر له تخليه عنها ورفضه الدائم لحبها دون أن يبرر لها ما دافع أو السبب وراء ذلك !.

إيميلي رمز من رموز الحب المستحيل ، التي توحي الي استحالت اجتماع فرنسا و الجزائر ،ليسلط السارد الضوء على هذا الجانب الخفي بين هاتين الدولتين من المنظور ما بعد الكولونيا لية ، حيث جسدت إيميلي الحب المستحيل بينها وبين يونس ، وبين فرنسا والجزائر لأنه قائم على خطيئة محرمة، موسوم بقطيعة أبدية بسبب فوارق جازمة ، تجعل اي تواصل بينهما شبيها بزنا المحارم ، مبني على خطيئة محرمة تدينها الديانات السماوية ، والبشرية جمعاء لأنها علاقة آثمة ومنافية للأخلاق والأعراف والعادات وتقاليد. وعلى هذا الأساس لم يتم لقاء يونس مع إيميلي الا على هامش قبرها.

يقول يونس " أخرجت من الجيب الداخلي لسترتي صرة صغيرة من القطن، جذبت الخيط لفتحها، أدخلت أصابعي المرتعدة وأخرجت بعض البتلات الجافة ونثرتها فوق القبر إنه غبار الزهرة التي قطفتها من مزهرية منذ أزيد من سبعين سنة "[3].

نهاية مأساوية عاشها يونس جراء موت إيميلي دون أن يجتمعا رغم حبه الكبير لها، لكن الخطيئة التي وقع فيها دفع ثمنها خسارة إيميلي في حياته لتبقى ذكرى تعيش في روحه ، يمكننا القول أن إيميلي القضية الوحيدة ليونس وهنا تظهر هويته بكل وضوح مجسدة شخصية رجل واحد. دون ازدواجية كما اعتدنا عليه ، قضيته قضية عاطفية لرجل هام بحب فتاة فرنسية لتبقى رمز استحالة الالتحام بسب خطيئة محرمة بين يونس وإيميلي من جهة وبين فرنسا والجزائر من جهة اخرى.

---

[1] الرواية ،ص 259.

[2] الرواية ،ص 270.

[3] الرواية ،ص 2779

أصدقاء جوناس المقربون :

1-**جان كريستوف** : صديق المقرب لجوناس جمعتهما علاقة متينة لسنوات عديدة ، يقول : جوناس " كان جان كريستوف يتأبط علبة .راقبت نظرته ، ....أقترب مني ....مد لي العلبة بحركة لطيفة .قال لي : أطلب العفو ....أنه حصان خشبي له قيمة كبيرة في نظري ،اليوم ،اهديه لك .أذا عفوت عني، خذه شجعني فابريس بعينه."[1] على الرغم من الصداقة التي جمعت جان كريستوف بجوناس ، إلا أن هناك ثغرة سمحت لتسرب العداوة التي جرت الصديقين إلى القطيعة التامة لسنوات عديدة ، أثقلت كاهل جوناس ويمكن حصر هذه المأساة في نفسية جان كريستوف المتعصبة وكدليل عن ذلك نلمسه في موقف جان كريستوف خلال طفولته عندما أبرح جوناس ضربا فقط كونه أغضب ايزابيل التي كانت حبيبته انا ذاك يقول جوناس " قام جان كريستوف لامي بمشاجرتي في ساحة المدرسة وضربني ضربا مبرحا خصيصا لينتقم لها ."[2] ليتراجع عن قراره لكن حادثة الأخيرة لم تكن كسابقتها، حيث أنها أظهرت معدن جان كريستوف الحقيقي فهو يعلن العداء التام لأي من يقترب من خصوصيتها الشخصية ، فكانت إيميلي أزمة عاطفية أطاحت بكل من جان كريستوف في متاهة العداء لصديقة جوناس لسنوات طويلة دامت أكثر من40سنة. يقول جوناس: " بدأ عالمي يتقلص ،بعد أن اختفي جان كريستوف " [3] جان كريستوف كان عالم جميل لجوناس ، حيث يري فيه أسرته فكان الاخ والصديق ، ذكريات الطفولة والمراهقة ، مغامرات الشباب عاش الافراح بكل معانيها معه ،لكن هذا العالم الجميل تفكك واختفى وترك له مأساة عجز الزمن على تخفيف آلامها ولا مداوة جروحها ولا اخفاء ندباتها .

1- **فابريس** : ابن السيدة اسكاماروني تمتلك محلات في وهران وريو صالادو ، توفي زوجها وتركها لألسنة الناس سيمون ثاني أصدقاء جوناس ،شخصية مثقفة وطيب القلب يطمح أن يصبح روائيا ، فهو مولوع بالكتابة منذ الطفولة يقول جوناس " فابريس اسكاماروني الذي

[1] الرواية ،ص92,93.

[2] الرواية ،ص 91.

[3] الرواية ،ص 194.

يصغرني بشهرين ،فتى رائع ،القلب في اليد والرأس في الغيوم كان يطمح ليصبح روائيا ."[1] فابريس الصديق الوحيد الذي شكل الجانب المشرق لدى جوناس ، لم يؤذيه في أي جانب من جوانب مقارنة مع جان كريستوف الذي أعلن العداء اتجاه ، وسيمون الذي تزوج حبيبته إيميلي .يمكننا القول أن صفات النبل تجتمع في شخص فابريس علي جميع الأصعدة سواء الإنسانية ، أو الثقافية كما أنه شخصية ناجحة ومؤثرة بإيجابية يقول جوناس " تحصل فابريس على الجائزة الوطنية الأولى للشعر ،قادتنا السيدة اسكاماروني أربعتنا ،الى الجزائر العاصمة لحضور حفل تسليم الجائزة ."[2] يمكننا القول أن فابريس يمثل الرابطة المتينة التي حظى بها جوناس منذ بداية صداقتهم في الطفولة الى اخر ايام شيخوختهما.

2- **سيمون بن يامين** : الصديق الثالث لجوناس ، من يهود الجزائر بنفس عمره ،كان يتميز منذ الطفولة بالعنف في التعامل مع زملائه ، والمشاغبة يقول جوناس " بن يامين ، من يهود الجزائر ،خمسة عشر سنة مثلي تماما ...فتي بشوش ،متحرر .[3] شخصية مرحة ، رحب الصدر ،يحب المزاح ويحلم بامتهان المسرح ،يمكن القول أنه من بين المحظوظين حيث ابتسم له القدر وتزوج من الجميلة إيميلي وأصبح والد ابنها ، هذه العلاقة الزوجية أثرت كثيرا على جوناس بسلبية حيث كونت لديه مشاعر الغيرة أحرقت خوالج جوناس وكان مرغما على التعايش مع هذا الوضع كي لا يخسره كما خسر جان كريستوف .

نهاية سيمون مأساوية ،أثر اشتعال النيران التي التهمت روح سيمون ، جوناس شهد اللحظات الأخيرة لمفارقته الحياة. هذه الحادثة المأساوية أكثرت على نفسية جوناس يقول: " كان هناك جسد ممدد على العشب ، منكب على بطنه ، ذراعاه على شكل صليب تسوطه نيران بين الحين والحين ....لم يتحرك الجسد .كان عاريا ،سروال داخلي عند أسفل الفخذين ..تعرفت عليه من صلعته :سيمون !...،هل اعيش كابوسا ؟.[4]

---

[1] الرواية ،ص ،100.

[2] الرواية ، ص 135.

[3] الرواية ،ص 100.

[4] الرواية،ص 230.

من خلال ما سبق و ما تم دراسته حول شخصيات أصدقاء يونس، ندرك أن يونس لم يتخل عن هويته بإرادة منه، أو برغبة تملكته، إنما جاء ذلك التخلي و الانسلاخ من طرفه نتيجة حياة كريمة عاشها بين الأوروبيين، حيث وجد بينهم ما قد يبحث عنه أي فرد وجد التقبل، الاحتواء، كذلك الحب فشعر بالانتماء لهم ولم يخطر بباله يوما أنه في مكان غير مكانه، وبين ناس ليسوا بناسه، ولا يمدون له بأي صلة تذكر، لكن هذا لم يظهر جليا أمام يونس، لأن ما عاشه بين الأوروبيين عامة و أصدقاءه خاصة كان أكبر من علاقات اجتماعية فائتة، أو معارف عمل عامة، ما عاشه مع كريستوف و فابريس و سيمون أقل ما يقال عنه أنه صداقة روحية عظيمة، وجد لنفسه كيانا بينهم، وجد لنفسه احترامها، مكانتها، في حين لم يجد ذلك بين أبناء بلده في جنان جاتو...

ربما كان مسار يونس الهوياتي ليتغير لو أنه نُبذ من طرف الأوروبيين، كان ليتغير لو أنه شعر بينهم بأنه غريب، لكن حدث عكس ذلك ما أدى بيونس للعيش داخل حيز هوياتي هو في الأصل ليس حيزه.

الفصل الثاني:

إمتداد الفكر الكولونيالي

للأنا والآخر

الفصل الثاني: إمتداد الفكر الكولونيالي للأنا والآخر

1- الأنا داخل إطارها الكولونيالي:

أ-الأنا أثناء فترة الاستعمار:

تنقسم الشخصيات داخل الرواية بين أنا وآخر، حيث تتجسد الأنا في الرواية في الشخصيات صاحبة الأرض، أبناء ذلك الوطن المغتصب، والمتمثلة في يونس و جلول؛ إذ يُبرز كل منهما وجها مختلفا عن ارتباطه بالوطن آنذاك، ولتكن البداية بـ" يونس:

-يونس هو ابن ذلك الرجل العظيم الذي رغم صعوبة الحياة و قسوتها لم يمُد يده يوما لأحد رغم حاجته الشديدة ، يونس هو من عاش سنواته الأولى بين الأحياء المخيفة والأزقة القصديرية.، كان لباسه لا يعدو أن يكون قطعة قماش بالية تغطيه، و وجباته وإن زادت فلا تُشعر صاحبها بشبع مقنع، وأيامه تمر وهو بين المعانين ابتداءً بأييه نهاية إلى قاطنات ذلك الحوش المزري اللاتي يتجرعن المرارة يوما بعد آخر بوجوه مبتسمة وقلوب صابرة، مرورا بسكان جنان جاتو الذي يحلم سكانه بحياة لا نقول كريمة بل حياة تطاق فقط. ، فقد وصلت معاناتهم ذروتها، كان شقاءً مقرفا، وكأن الشمس لا تشرق ، وكأن الليل مصرٌ على إلقاء ظلامه ليل نهار، بؤساء في كل مكان ، الجوع ألصق بطونهم بظهورهم، الأوقات جد صعبة ، والأمَرُّ من ذلك أن لا بصيص أمل يظهر، اليأس عصف بقلوب الجميع، كيف سيتحسن الوضع؟ ليسوا في مكان يذكر ، إنهم إن صح التعبير في مزبلة الأرض، كل ما ورد من وصف لجنان جاتو كان على مرأى من يونس و أما عينيه.

قدِّر ليونس النجاة من تلك المعاناة، أُعطي فرصة للحياة أخيرا ، انتقل لوهران للمكوث عند عمه والاستقرار عنده ، في منزله الذي يتوفر على جميع وسائل العيش الكريم، ربما لم يخطر في بال يونس و هو بجنان جاتو أن هناك من يحيا حياة رغدة مثل التي يحياها عمه. يونس هو من النادرين الذين أعطتهم الحياة مثل هذه الفرصة في أن يخرجوا من الظلام إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، تغير مجرى حياته، تغيرت جذريا فلم يبقَ يبدو على يونس أي علامة من علامات البؤس والفقر اللذين عاشهما.، التحق بالمدرسة و أصبح ابن وهران

الفتى جوناس، تغير اسمه و نمط حياته حتى بعض من اعتقاداته، ربما انبهاره بحياته الجديدة أنساه من يكون.، انتقل يونس بعد وهران إلى ريو صالادو ، ليست كوهران، إنها قرية يعتمد أهلها على الفلاحة و زرع العنب وفي الوقت نفسه لم تكن أشبه ولو بالشيء القليل بجنان جاتو، بل كانت أجمل ربما من وهران، هادئة يعيش أهلها الأوروبيون سعادة جميلة ، سعادة لا متناهية قاسمهم يونس تلك السعادة و عاشر أبناء الأوروبيين و أصبح منهم فعلا ، نسي يونس من يكون ، نسي أصله، نسي أهله الذين يموتون في اليوم ألف مرة جوعا و حسرة و ألما ، نسي أمه وأخته ، لم يأبه لذلك الفرق بين جنان جاتو و وهران و ريو صالادو ، لم يتساءل يوما لماذا لا يعيشون كلهم تحت نفس الظروف، لم يتحرك في قلبه شيء، ألم يرَ بأم عينيه ما يعانيه سكان جنان جاتو؟ لماذا هذا البرود من طرفه ، لماذا انصاع لقواعد الأوروبيين فعاش عيشتهم و سُمي على طريقتهم، كيف لهذا أن يكون؟ ألم يرَ أباه وهو يأتي ليلا معوج الظهر من شقاء الأعمال التي يقوم بها من أجل توفير قطعة خبز يسدون بها رمقهم ، ألم ير الهواري ذلك الطفل الذي لم يتعلم وكان يعتمد على صيد العصافير ليعيش من خلاله في حين أن أبناء الأوروبيين يتعلمون و يأخذون حصتهم في عيش طفولتهم بكرامة، كيف ليونس أن ينسى أن أباه اضطر لتسليم فلذة كبده؟ لأنه أدرك و بعد عناد طويل أن ما باليد حيلة. فانتهت جميع حلول الأرض بالنسبة له ، اقتنع أنه لا طريقة للخروج من ذلك المستنقع القذر، وهو الذي لطالما أصر على إبقاء ابنه تحت كنفه وعدم التفريط به، كبر يونس مع الايام ونضج و أصبح له آراؤه و وجهات نظره لكن لحينها لا يزال ناسيا من يكون و أن له قضية من الواجب الثورة من أجلها ، إن شخصا مثل يونس مر عليه ما مر من معاناة لا يُنْتظر منه غير النضال والمقاومة لاسترداد حرية بلاده، لأنه يدرك ما معنى أن يغتصب الوطن و تُحتل الآرض ، و يضطهد الشعب.، لم يحرك يونس ساكنا اتجاه وطنه ، لم يلبِّ النداء ، كان أعمى أصم و أبكم، لا يكلف نفسه حتى عناء التساؤل والحيرة عن مصير البلاد ، ربما نسي حقا أنه ابن الأرض الأصلي و أنه واجب عليه دعم قضيته سواء فكريا أو ماديا...

أو ربما كان سيحس بالخيانة لو انخرط في صفوف المقاومة ، الخيانة اتجاه أصدقائه الأوروبيين و جيرانه و زوجة عمه،. تعرض يونس لعديد من المضايقات التي تخص العرب والجزائريين، من سب وشتم و غيره ، حيث كان يونس مثل الصباح الذي لا يتوهج إلا بوصول الكهرباء إليه ، لا ينفعل إلا باستفزازات يتلقاها من الآخر ، حينها وفي بعض منها فقط تتوهج هويته المضمرة تحت هويته الجديدة الأوروبية ، و من بعض المواقف التي احتج فيها نذكر حين لجأ إلى جيم جيميناز صوزا ليتوسط لجلول الفتى العربي خادم عائلة صوزا، الأخير الذي تم اتهامه بالقتل، فما كان من جيم جيميناز إلا في إخبار يونس لمدى أحقيتهم بهذه الأرض، الجزائر، وأنهم من شيدوها و بثوا في قفارها الحياة واصل السيد صوزا كلامه ويونس كله صمت وإصغاء ،حيث تلقى عدة صدمات سمعها في حق العرب كان منها قول جيم التالي: "أنا أعرف العرب منذ أجيال، وأعرف طينتهم. جميعهم أفاعي، وبلا استثناء...اعترف هذا القذر و قد صدر الحكم بالإعدام."[1]

واصل السيد صوزا ذم العرب و التفاخر بالجزائر على أنها موطنهم وهم أصحابها الذين خدموها مثلما يخدمون أمهاتهم وأنه يجب إقامة الحرب لأجلها ولأجل استردادها من الجزائريين الذين نعتهم ب: " لا أحد يستطيع إنكار حقنا في مواصلة خدمة هذه الأرض إلى الأبد...وبالأخص، ليس هؤلاء المقمَّلون ، الكسالى الذين يعتقدون جذب البساط من تحت أقدامنا باغتيال مساكين من أهلنا".[2] كان واثقا ثقة خيالية، حزَّت كلمات السيد صوزا في نفس يونس وحركت هويته النائمة منذ سنوات، أحس أن كل ما ينعت به العرب موجه إليه أيضا. فرغم كل شيء هو عربي، الأمر الذي لا يمكن إنكاره ولو مرت آلاف القرون، حيث قال يونس واصفا ما بداخله: " فجأة، انبثقت من ركن منسي بداخل شعوري الباطن صورة عبد القادر و هو واقف على مسطبة قسمي بالمدرسة الابتدائية، يلمع وجهه من الخجل، صورة ظننت أنني دفنتها إلى الأبد مما أجج غيظي. رأيته بوضوح، مكشرا من الألم في الوقت الذي كانت أصابع المعلم تلوي أذنه. انفجر صوت موريس الصارف في رأسي" سيدي،

[1] الرواية ص: 216

[2] الرواية ص: 219

سيدي لأن العرب كسالى!" تسربت ذبذباته الصادمة عبر كامل جسدي ذلك اليوم في المدرسة .... السيد صوزا الواقف على هرم عجرفته اللمعان المضر لغطرسته المتضخمة"[1].

إن يونس و عندما بدأت هويته النائمة تستفيق لم يعد يرى في السيد جميناز ذلك المحترم الموقر ، إنما حينها ألغى جميع الاعتبارات و قواعد المعاملة ليس قلة أدب وليس عدم معرفة بأصول المعاملات إنما لأنه رأى أن السيد صوزا قد ألغاه وألغى وجوده و عزله برغبة منه عن منبته و عن أصله، عن هويته التي لا مفر ولا مهرب منها ولا يمكن و بأي ظرف من الظروف الانسلاخ منها متى ما شئنا، لكن صوزا فعلا ، تناسى من يكون يونس. ، فما كان من يونس إلا أن يوقفه عند حده فقال: "منذ زمن طويل، السيد صوزا، قبلك و قبل جدك الذي تتحدث عنه، كان رجل يقف في المكان الذي تتواجد فيه، عندما يرفع عينيه على هذا السهل، لا يتوانى عن رؤية نفسه مالكا لها. ولم تكن هناك طرق معبدة ولا سكك حديدية، ولم تكن أحراش الديس والأشواك تزعجه. كان كل واد، يزأر بمياهه الجارفة أم يئن تحت الجفاف، كل شبر ظل، كل حجرة، تعكس له صورة خشوعه. ....لست موافقا معك السيد صوزا، هذه الأرض ليست ملكا لكم. إنها ملك الراعي الذي عاش هنا...خذوا بساتينكم و جسوركم و أسفلتكم و سككم الحديدية، ومدنكم و حدائقكم، وأرجعوا الباقي إلى ملاكه الشرعيين."[2]

كان رد يونس قويا و صارما، و لأول مرة ربما يظهر يونس العربي ابن البلد لأول مرة يشعر بهذا النوع من الانتماء ، ربما أول مرة يعبر ويخرج ما بداخله ، أوقف صوزا عند حده، لم يقاطع جيميناز يونس ولو بحرف، أدرك أنه ليس من مصلحته مقاطعته، رأى كم أن يونس صلب حينها و متمسك برأيه، يونس في تلك اللحظات انفجرت داخله ذكريات لطالما اختارت الاختباء ، ذكريات أعادته إلى أيام جنان جاتو، ومظاهر المعاناة التي شهدها هناك ، والتي أخذت بعائلته و حرمته منها، تلك المعاناة التي ؟؟؟؟اليوم هو جوناس، لا يتمنى أحد أن يغيَّر اسمه، وأن يبتعد عن عائلته ، لا يتمنى أحد أن يسلَّم بيد أبيه لآخر يربيه، لكن هذا

[1] الرواية ص: 219

[2] الرواية ص: 220

قد حصل مع يونس والسبب الرئيسي في ذلك هو جيميناز صوزا و الجميع من بني جلدته، الذين عاشوا مركزا واتخذوا الأماكن المركز مستقرا لهم في حين عاش أهل البلاد وشعبها في المداشر حيث قبعوا تحت الشقاء والبؤس منذ أن حولهم الفرنسيين من رجال أحرار إلى صف بهائم.

غادر يونس المكان وأنهى اللقاء حين شعر أن الغضب يغلي بقلبه و رأسه مثل خلية نحل مفتوحة للرياح، لطالما تغاضى على إهانات الأوروبيين للعرب، لطالما اكتفى بحجز آلامه في قلبه، لكن ليس إلى هذا الحد ، يجب على المرء أن ينتفض حين يخص الأمر أهله وناسه، ولم نعهد ليونس هكذا ردود إلا نادرا حين يتلقى صدمات قوية من الآخر، صدمات بتواتر عالي، أما تلك المنخفضة التواتر فلم تكن تحرك فيه ساكنا.

تعاقبت الأيام والسنوات، و أهل ريو صالادو يعيشون حياتهم بسعادة تامة و لا متناهية، الهدوء يسود، والأمن هو الميزة العظيمة هناك في حين عديدة من القرى و المداشر بالجزائر يتم فيها أبشع أنواع التقتيل والتعذيب، حلت 1945 وهي في تاريخ الجزائر سنة جرائم المستعمِر بمجازره الشنيعة اتجاه الجزائريين، مات الآلاف من أفراد شعب يونس، لكن يونس لم يكلف نفسه حتى عناء الانخراط لمقاومة المستعمِر الغاشم، ربما كان يرى نفسه في ريو صالادو الابن الأوروبي رغم أن عمه كان من المناضلين اتجاه القضية. الأمر الذي غض يونس الطرف عنه ولم يتبع نهج عمه بل كان مختلفا كل الاختلاف عنه...

عادت الأيام تمر كسابق عهدها في ريو ويونس لم يتغير له موقف ما إزاء وطنه، حتى أنه في ذلك اليوم حين قصده جلول مجروحا معتدىً عليه من طرف سيده آندري، جاءه طالبا قليلا من المال ليسد حاجات عائلته إلى أن يأتي الله بفرجه، صحيح أن يونس لم يبخل عليه بل أعطاه أكثر مما يريد بل و نقله على دراجته ليوصله إلى منزله، انصدم يونس من المكان الذي يعيش فيه جلول ، كان يظن أن جنان جاتو هي أبأس منطقة قد تتواجد على سطح الأرض؛لكن كان ظنه خاطئا و ما خفي كان أعظم، حيث يعيش جلول وعائلته

و سكان ذلك الدوار جميعا أبأس و أقذر حياة قد يعيشها بشر، ومن الخطأ أن نسميها بحياة، لا تحمل أي معلم من معالم الحياة البشرية ولا حتى الحيوانية، إنه إقليم ملعون إلى حد بعيد.

انصدم أيضا صمود جلول ذلك الولد الذي لم يبلغ من العمر ما يجهزه لهكذا حياة، أخافته حنكة جلول، أخافه الدوار. ارتعب أيضا حين دعاه ليعرفه على والده، لم يكن مستعدا ليعود وينغمس في هذا الدوار، لم يرقه أصلا تواجده بذلك المكان، استعجل الذهاب و فرَّ كالطائر المسجون، ربما لم يرعبه المكان بقدر ما أرعبته فكرة العودة إلى مكان هُرِّب منه سابقا، تملكه ذعر حتى من ذكرياته، لاحظ جلول عليه ذلك الذعر فما كان منه إلا أن يذكره أن هذا المكان هو مخبأ جميع أفراد بلاده، وأن ريو و وهران ليست له بقدر ماهي لهم، وأنه نسي من يكون بينهم، و نسي واجبه اتجاه اخوته الذين يقمعون تحت الفقر والعنف والعفن والبؤس وكل مظاهر الحياة المزرية.

أخبره جلول بأن الجنة التي يعيش فيها هو لا يعيش فيها أهله ، أراه أين يعيش أهله وكيف.

غادر يونس كالمجنون، يعرف جيدا أن جلول ليس مخطئا حيث قال: " لم يكن جلول مخطئا. بدأت الأمور تتغير ولكنها بالنسبة لي كانت تحدث في مكان متوازٍ. كنت منقسما بين الوفاء لأصدقائي والتضامن مع أهلي....سأكون مضطرا، إن عاجلا أو آجلا إلى اختيار جهة ما."[1]

إنه لمن الملفت للنظر أن يوجد شخص مثل يونس، يحتار بين ماذا يختار؟ وطنه ووطن أجداده، الذي أُخذ منهم بالقوة و بالتقتيل والجرائم في حق مُلَّاك الوطن، أم أصدقاؤه أبناء الاستعمار، الذين استحوذوا على كل شيء وعلى جميع خيرات البلاد، وهمشوا سكانه. كيف له يحتار، أو لأن حظه العظيم الذي أعطاه فرصة الحياة في جنة أنساه الجحيم الذي ولد فيه، وعاش فيه حياة لا تنسى، لو بقي في جنان جاتو وكبر فيها و استمرت معاناته هناك لكان له قناعات أخرى و استعدادات غير التي هو عليها الآن، هل الجنة تُنسي الجحيم؟ هل الراحة تنسي العناء، هل السعادة تنسي؟ بالنسبة ليونس فنعم أنسته حياته

[1] الرواية ص: 135

الجديدة و السعادة التي يعيشها كل ما كان عليه، أنسته الجحيم الذي عاشه، أصله، أهله، قضيته الأصل، اغتر يونس بأصدقائه و بسنواته العشرين.

-وفي موقف آخر حين جاء جلول الذي اختار الالتحاق بصفوف المقاومة العسكرية طالبا مساعدة يونس و جرمان لإنقاذ قائدهم الجريح. يونس حينها قدَّم المساعدة ولم يقصر لكن الفرق بينه وبين جلول أن يونس لا يملك تلك القناعة التي يملكها جلول وكانت مساعدته تحت الضغط والخوف من أن يفقد حياته لا أكثر، ففي كل مرة كان يسأل جلول ما سيحل به و أمه إن لم ينصع لأوامره أو لم يستطع و أمه إنقاذ الجريح، لم يقدم يونس المساعدة لأنه واجبه، لم يقدمها لأنه شعر أنها فرصته لتلبية نداء وطنه، ما أثار استغراب جلول وحيرته حول يونس الذي ولحينها لم يقرر وجهة معينة يكون بصفها.، يونس ليس من جماعة الحركى أو القومية وفي الوقت نفسه ليس مناضلا مجاهدا لأجل قضية وطنه الجزائر، متى ينوي اختيار وجهة معينة أم سيظل خارج القضية وكأنها لا تعنيه في شيءسأله جلول قائلا: "متى ستختار جهتك؟ يجب أن تتخذ قرارك يوما..."[1]

كان رد يونس أنه لا يحب الحرب! أمن المعقول هكذا جواب؟ لا يحب الحرب! هل يرى ثورة أهله لاسترداد أرضهم و حريتهم حربا، هل يرى في رغبة شعبه أن يعيش حياة كريمة حربا، أليست الحرب هي معاناة سكان جنان جاتو، أليست بؤس دوار جلول أليس عيش الفرنسيين في وهران و ريو صالادو واستمتاعهم بخيراتها في حين يقبع الجزائريون تحت أقصى أنواع الفقر والحرمان هو الحرب عينها، أثارت رؤية يونس للأمور ازدراء جلول و شفقته. حيث رأى فيه ذروة اللامبالاة التي قد يشعر بها شخص ما، رأى فيه قمة الضعف و اللاهوية.، الشعب صغارا و كبارا، نساءً و رجالا، انخرط الجميع في هذه الثورة ، ثورة الحق، ويونس المتعلم الميسور الحال بل والغني، الصيدلي الذي لو تقدم للانخراط لكان له الدور الكبير في المساعدة اختار عدم التقدم ، والاكتفاء بتمضية أيامه على نحوها السابق

[1] الرواية ص: 243

دون اقحام نفسه في شيء. على كل حال إن المساعدة التي قدمها يونس لجماعة جلول مساعدة عظيمة، وكانت لتكون أعظم لو كانت عن قناعة و من تلقاء نفس.

رغم محاولة جلول استفزاز يونس ربما من أجل تغيير موقفه اتجاه الثورة أو لإشعاره بالذنب إلا أن موقف يونس كان صارما و ثابتا، لم تحرك كلمات جلول فيه شيئا، كان موقفه سلبيا إلى حد بعيد، كما أشار إلى أن لا شيء في الدنيا يثيره، وحاول بكلمات مباغتة تذكير جلول بأيام إذلاله التي قضاها عند آندري، مضيفا أن ذلك الإذلال الذي عاشه هو ما دفعه لاختيار الالتحاق بالجبهة و رفع السلاح. أدرك جلول أنه ما من أمل يُرجى من يونس. فتفرسه بقرف و ما عاد لإزعاجه بعدها فهو في نظره جبان خوَّاف. يُرجع قيام الثورة والنضال لشعور الأهالي بالإذلال والإهانة، رأى يونس في الثورة ثورة كرامة لا أكثر، و أن الثوار هم من سُلبوا كرامتهم و أُذلوا، في حين أنه هو معزز مكرم بين الأوروبيين ، فما الحاجة للمقاومة و النضال حسبه، لقد كان أنانيا في تفكيره و بطريقة مقرفة.

-**جلول:** الرواية تحكي أحداثا طويلة كلها كانت في فترة الاستعمار والثورة إلى غاية الاستقلال وما بعده؛ لكن لم تدر أحداثها حول الاستعمار و لم تركز على الثورة التي قامت آنذاك إلا في مواضع قليلة.

كما لم تسرد كيف قامت و لا كيف انتهت ولا من أقامها وغيرها بل حكت لنا جانبا آخر تمثل في العلاقات و مجرياتها..، وإن وُجدت شخصية ما أبرزت الجانب الكولونيالي آنذاك فهي جلول، الخادم الصغير و العسكري الكبير، الذي أمضى طفولته و مراهقته خادما لآندري. خادما ذليلا مُهانا مغلوبا على أمره. تلقى أثناء فترة خدمته لآندري أبشع أنواع الإهانات و التعسف من طرفه، عومل ككلب مستعبد، لم يحتج يوما ولم يعترض على ما يتلقى، ليس عدم مبالاة ولا برود قلب، بل لأنه ما باليد حيلة، كان مدركا أنه يعامل معاملة الكلاب بل الكلاب أكرم منه. هل هناك حل آخر؟ هل هناك ملجأ للعمل ونيل بعض الدراهم؟ لا و للأسف. وإن ما تلقاه من آندري الذي كان يدوسه كبهيمة لا حول لها ولا قوة

صعب جدا، مثال هذا حين قال: " لست بحاجة إلى أن أخطئ في شيء ما. يجد دائما أعذارا ليدوس علي....ضربني ضربا مبرحا....سوف لن يجد كلبا أفضل مني في السوق."[1]

حال جلول ميؤوس منها، وصل به الأمر إلى اعتبار نفسه كلبا مطيعا، هل يصل المرء إلى مثل هذا؟؟ هل تفعل المعاناة فعلتها لترد صاحبها غير آبه لكرامته، ولعزة نفسه. ماذا يبقى بعد الكرامة، هل جرَّدت معاملة آندري جلول حتى من إنسانيته؟ أين كان يونس من كل هذا؟، أليس جلول ابن وطنه، أليس واحدا من ذويه، أليس مظلوما؟ لم يكن جلول كيونس ذا حظ و صاحب معجزة تأتي و تخرجه مثل التي أخرجت يونس من جنان جاتو.

يأخذ كل فرد منا نصيبه المقدَّر، وهذا ما حصل مع جلول، سُلِبت حريته و كرامته و نفسه عزتها لكن ما إن سمحت له الأيام باستردادها لم يتأخر لحظة، ما إن أتته فرصة اتخاذ القرار فعل، حُكِم عليه بالإعدام لكن كان حكما بشريا لا ربانيا، الحكم الرباني أنقذه من الموت وأعطاه الفرصة ليختار طريقا غير التي كان فيها، اختار الانضمام إلى زعماء الثورة، اختار الانضمام إلى مناضلي الوطن و العمل معهم لاسترجاع حرية الجزائر الحبيبة، فضل أن يموت في تفجير قنبلة ما أو في عملية تمشيط أو حتى بطلقة رصاص تأتيه وهو يجهز جنوده المناضلين لعملية عسكرية معينة. الموت واحدة والأسباب تختلف ، اختار أن يكون سببه شريفا ، وكان له ذلك، وإلى آخر نفس له كان من الرجال الذين استعادت الجزائر حريتهم بسببه و بسبب أفذاذ أمثاله.

حين أصيب قائدهم الهواري لم يستطع أن يبقى مكتوف الأيدي لأن الثورة لا تزال قائمة وتحتاج لقادتها. خطر يونس في باله كحل واحد و وحيد لأنه هو من يستطيع مساعدتهم، سواء برغبة منه أو تحت تهديد المسدس، فعلها و أخذ قائده الجريح لمنزل يونس. وجد مراده عنده حيث لم يخطئ الظن. يونس هو الحل. في فترة مكوث جلول والقائد الذي كان حينها يتلقى العلاج حاول جلول محاورة يونس ليفهم تصرفاته التي لا تمد ولا بأي صلة على أنه جزائري ابن الجزائر.

[1] الرواية ص: 132-133

لم تُجدِ محادثات جلول ليونس أي فائدة. يونس مصر على موقفه الحيادي. لا هو مع ولا ضد؛ ما أثار غضب جلول حيث واجهه قائلا: "لستَ إلا جبانا. ترفض أن ترى ما يحدث في قرانا التي تقصفها الطائرات بالنابالم، و مايحدث في السجون.....ما نوع البشر أنت جوناس؟ ألم تفهم بعد أن شعبا كاملا بأكمله يكافح من أجل إنقاذ أمثالك؟"[1]

كان استغراب جلول من يونس عظيما. كما كان موقف يونس مقرفا. فجلول معه حق، كيف له أن يعيش هنيئا و كأن شيئاً لا يحدث، كيف له يغض بصره عما تعيشه البلاد من ثورة وانقلاب. أين الجزائر منه، أين معاناة جنان جاتو من نفسه، أين ألم فراق أبيه من حياته، أين اكتسابه لهوية غير هويته من قلبه. كل هاته المواقف ولم تحرك في داخله شيئا، هل الحياة مع الأوروبيين تنسي الفرد من يكون؟؟؟ تختلف شخصية كل من جلول و يونس كل الاختلاف، فعلى عكس يونس جلول يتحلى بكل صفات الوطنية، وأول ما فتحت الفرصة بابها أمامه حتى التحق ليضع بصمته في ثورة الجزائر العظيمة، ليس لشيء شخصي أو لغاية تعود بالفائدة عليه بل لأنه مقتنع بقضيته، ويدرك أن الدم الذي يجري بعروقه وإن مرت القرون سيبقى جزائريا، والأرض وإن اختلفت رائحتها وزراعتها و سكانها فهي أرضه و أرض أجداده ولا يسمح لأي كائن كان باغتصابها.

جلول يمثل الثورة في أبهى حللها، يمثل الاعتزاز و يمثل صورة الجزائري الحقيقي الذي لا تغريه دراسة ولا حفلة شواء ولا سيارة مرسيدس، مثلما أغرت يونسجلول يثبت في الرواية أن الجزائر استعادت حريتها بفضل شعب مثله، يمثل جزءًا لا يتجزأ من شعب وهب النفس والنفيس لرؤية الأعلام الجزائرية ترفرف مجددا معلنة بالحرية والاستقلال، قام جلول بواجبه اتجاه وطنه و خسر روحه لأجلها، استشهد في عملية اغتيال، تاركا وراءه جزائرا حرة.

ب-الأنا في مرحلة ما بعد الكولونيالية:

حصلت الجزائر على استقلالها، عاد شعبها حرا مطلقا يملك أرضه وليس بمضطر لتقاسمها مع أبناء بلد آخر، عادت شمس الحرية لتشرق مبشِّرة بالسعادات القادمة، عادت

[1] الرواية ص: 247

الجزائر للجزائريين، غادر كل أوروبي داست قدمه أديم الجزائر يوما، عادوا لديارهم يجرون أذيال الخيبة وهم من كان يظن أنهم ملاك الأرض الجزائرية و أصحابها الشرعيون، قبل ساعات قليلة من 05 جويلية 1962 تم قيادة يونس من طرف مرافقين مجهولين إلى ثكنة عسكرية تعود إلى جيش التحرير الوطني . ، كانت الدعوة من طرف جلول الذي يرى أنه لا يزال يدين ليونس بدين يجب تسديده، وكانت الدعوة لأجل ذلك حيث قاده إلى إحدى الزنزانات الخاصة بأسرى الثورة الأوروبيين، أدخله الزنزانة التي تضم أحد أشرس مناضلي منظمة الجيش السري، تركه ليونس يتولى أمر إطلاق سراحه. حلت الصدمة على يونس في تلك الدقيقة حين تعرف على الأسير الذي فقد كثيرا من قوته، كان رجلا محطما، جائعا، كل ملامحه باهتة وفي حال مزرية. إنه جان كريستوف صديق يونس. لم يقو يونس على الحركة من تأثير الصدمة. ظل جامدا يرى أمام عينيه أيام الماضي أيام الصداقة، خرجات الشاطئ و حفلات الشواء و المغامرات التي جمعتهم. جان المتعب المنهك أيضا لم يتفوه بحرف حول الموضوع، خرج من الزنزانة مغادرا منها الجزائر كلية، مغادرا إياها إلى أي بقعة في الأرض إلا الجزائر التي حُرمت عليه وعلى أمثاله.

غادرت إيميلي ، فابريس، سيمون، آندري، إيزابيل و جان كريستوف و الجميع بقي يونس وحيدا بالجزائر تزوج وأنجب ومر به العمر فأرداه عجوزا هرما. لم يَرد في الر واية ما يدل على فرح يونس باستقلال الجزائر حيث كان همه الوحيد حينها العثور على إيميلي، كان كالمجنون يبحث في كل مكان يخطر على باله. قلب المدينة سافلها على عاليها ولكن لا جدوى. خرج الشعب محتفلا، الرايات الجزائرية ترفرف عاليا هنا وهناك، الأناشيد و الزغاريد تزيد الجو طربا و بهجة.

مرت السنوات إلى أن قرر يونس القيام بزيارة إلى فرنسا، ذلك الجانب الآخر من العالم حيث يوجد بعض من جزئه، يوجد قلبه، توجد ذكرياته التي اقتسمها مع من هم هناك، إيميلي حبه الذي انتهى قبل أن يبدأ أصلا، أصدقاؤه الذين كانوا أروع مثال قد يوجد للصداقة والتلاحم و الذين يجد ذكراهم في كل زاوية من زوايا قلبه، وجد في زيارته تلك فرنسيين بنكهة جزائرية ، لا تزال الجزائر التي عاشوا بها سابقا تظهر في ملامحهم، لهجاتهم و حتى

مواضيع حكاياتهم. ، لا تنفك الجزائر أن تكون الموضوع الرئيسي في كل الحوارات والأحاديث . بحث عن إيميلي سأل عليها و وجدها، التقى بها ولكن للأسف الشديد، كالعادة لم يحظَ لقاؤهم بالفوز ولم يكلل بالنجاح، هذه المرة انقلبت الأدوار، كان يونس قبلا هو من يرفض إيميلي، كان هو من يردها دوما خائبة حزينة، هذه المرة تغير الوضع، يونس هو من بحث عنها ، هو من يترجاها، هو من شعر بحرارة اللقاء أما هي فاستقبلته ببرود لم يتصوره يونس ، برود جمد كلماتها و روحه ، فعاد مثل ما كانت تعود هي سابقا بعد لقائها به في الصيدلية، هناك حيث كانت تترجاه و تتوسل حبه. لكن فعلا لقد تغير كل شيء، انتهت الحرب وعاد كلٌ إلى مكانه الطبيعي. سواء مكانه على الأرض أو في القلب، لم يعد يونس بعد ذلك اللقاء ليحاول إنقاذ ما تبقى من حب بينه و بين إيميلي. لم يعد لخلق فرصة أخرى، اكتفى بذلك اللقاء واقتنع أن الأوان قد فات.

و في زيارة ثانية من يونس إلى فرنسا حيث كان السبب مختلفا. في الأولى كانت رغبة في استرجاع الحب الضائع، أما هاته فكانت لإلقاء نظرة أولى و أخيرة على تراب قبر ذلك الحب، كانت المنية قد وافت إيميلي. زار يونس قبرها استرجع بعضا من الذكريات التي جمعتهما في وهران، استحضر لقاءاتهما عندما كانت ايميلي ترتاد الصيدلية أيام كانت صغيرة وقد أنهكها المرض....

تلا بعد زيارته المقبرة زيارة خففت عن يونس كثيرا من أعباء قلبه. التقى في منزل مشال ابن إيميلي بمعارفه القديمة بريو صالادو، التقى بكريمو و آندري و غوستاف و برينو وفابريس اسكاماروني. كان لقاءً أكثر من رائع، تذكروا حياتهم السابقة و مجرياتها الجميلة، تحدثوا عن الحفلات الراقصة و موسم قطف العنب و الولائم تحت ضوء القمر.تملَّكهم شوق عظيم لتلك الأيام.

كان جان كريستوف الوحيد الذي لم يلتحق بحلقة الأحبة. كان التحاقه متأخرا جدا. حصل الأمر في المطار لحظة مغادرة يونس الأراضي الفرنسية للمرة الأخيرة، وكما يُقال: أن تصل متأخرا خير من ألا تصل أبدا، التقى ؟؟؟؟ اللذين أنفقا عمرهما يحمل كل منها

مايحمله اتجاه الآخر، حملا فراقهما لسنوات طويلة، لم يكلف أحدهما آنذاك نفسه في توضيح الأمر للآخر ، لم يبذلا أي جهد في محاولة إعادة الوصل بينهما، إلى تلك الدقيقة من أيام عمرهما الأخيرة. تبادلا العناق والضحكات والدموع والمزاح في جو تدمع له العين.

لم يحمل يونس و لا أصدقاؤه أي ضغينة اتجاه بعض لأسباب كولونيالية ما، بل كان لقاؤهم لقاء مودة وحب و صفاء و بعيد كل البعد عن الأحقاد الكولونيالية بين المستعمِر و المستعمَر أو الأنا و الآخر.

أما جلول الذي لم تطأ قدمه أرضا غير أرض الجزائر. الأرض التي حارب لأجلها و أفنى شبابه في خدمتها لاستعادتها حرة مستقلة. فلم يكن الحظ حليفه يوما ولا السعادة نصيبه. أمضى صغره خادما ذليلا وعبدا مملوكا لسيد أوروبي، وشبابه بين الثكنات وأمام الأسلحة و فوق الألغام، على قول يونس فإن مصير جلول آل إلى: " لقد أخذ تقاعده من الجيش برتبة كولونيل في بداية سنوات التسعين....لكن الإرهاب الإسلاموي وقع علينا كالصاعقة و تم اغتيال جلول قرب منزله...قاتل جلول هو حفيده."[1]

إنه قدر ساخر و حزين أن يلقى شخص مثل جلول حتفه في عملية اغتيالية. وعلى يد من؟ حفيده! إنه ليس من العدل أن تجري به الحياة هذا المجرى، لكن يبدو أن الشقاء طُبع على جبين جلول بدايات حياته ، أوسطها ، وكذلك نهايتها ، لم تكن في مرحلة من حياته سعادة مثل التي يعيشها العديد، لكن اسمه لم يمت بموته و هذا أكبر شرف قد يحصل عليه المرء.

2-الآخر الكولونيالي:

أ-الآخر من منظور كولونيالي:

تجسد الآخر الكولونيالي في الرواية من خلال شخصيات رئيسية أثبتت كولونياليتها من خلال مواقفها في الرواية والتي تظهر جليا في التالي:

[1] الرواية ص: 285

يمثل أصدقاء يونس الآخر و بصفة واضحة جلية لا يختلف فيها اثنان، لكن وليكون الباحث صادقا لم تتجسد الكولونيالية في أصدقائه و في معاملاتهم مع يونس فلا فابريس و لا جان كريستوف ولا سيمون أبدى موقفا كولونياليا معينا، بل على العكس تماما فكانوا آخر مُحبا و مسالما. كانت الشخصية الكولونيالية للآخر تظهر مع:

– آندري، الذي كان يُكِنُّ الكره الشديد للعرب، حيث جعل أحدهم خادما شخصيا له، والعديد منهم عمالا في أراضي والده الذي بدوره يحملا أحقادا و ضغائن للعرب.

تجلت الكولونيالية في شخصية آندري من خلال مواقفه التي نذكر منها: " لا تتدخل جوزي. أنت لا تملك خدما و لا تعرف طبيعتهم...إن العرب مثل الأخطبوط؛ يجب أن تضربه كي يتمدَّد."[1]

سلَّط آندري أقسى أنواع المعاملة على جلول ليس لشيء إنما لكونه عربيا ابن الجزائر فحسب، حتى حين يغضب لأمر ما أو حدث استعماري جديد يمُس الجماعات العسكرية الكولونيالية يفرغ جام غضبه بجلول العربي فيضربه و يعنفه خوفا من تمادٍ يحصل بين خدمه العرب. حيث قال جلول ليونس في حادثة مماثلة: " هذه المرة بسبب غضب المسلمين في الأوراس. آندري مرتاب من العرب الآن، بالأمس جاء مخمورا من المدينة وضربني ضربا مبرحا.

رفع قميصه واستدار كي يريني الخدوش على ظهره. لم يتوان آندري من استخدام السوط كي يؤدب خادمه."[2]

ما ذنب جلول في عمل قام به الثوار، لم يكن معهم ولا مخططا لذلك. أم لأنه فقط عربي مثلهم؟

إنه لمن الظلم والجور إقحامه وهو العبد المطيع الذي لا يحتج رغم التعسف والاحتقار اللذين يلحقانه من سيده المتغطرس آندري، لم يتوقف ظلم آندري عند هذا الحد بل وصل به

[1] الرواية ص: 102

[2] الرواية ص: 132

الأمر إلى إلصاق تهمة القتل به، قُتِل ابن عمه فما وجد غير جلول أمامه ليردَّه بعد سنوات خدمته و وفائه قاتلا مجرما؛ جُرَّ جلول إلى السجن بتهمة لم يرتكبها. كره آندري للعرب والجزائريين جرَّده من انسانيته فلم يعُد يفرق بين الخطأ و الصواب، أعمته كولونياليته عن الحق و ضللت أفكاره.

-**جيم جيميناز صوزا:** والد آندري الذي ورَّث ابنه كره العرب و احتقارهم، هو أيضا كان مثالا آخر عن الآخر الكولونيالي، وكانت عديد مواقفه دالة على مدى اعتباره بالمواقف الكولونيالية والأخذ بها حيث يرى أنهم أصحاب الأرض و أبناؤها، يعتبر أيضا أن الجزائر ما كانت لتُشيَّد و تقوم لولاهم وإن كان الفضل في شموخها و خروجها من دائرة التخلف و التصحر يعود لأحد فهو هم.

ظهر هذا الموقف في ما رواه يونس حين قال له: "جميع هذه الأشجار التي تراها حولك تحكي لك قسطا من تاريخ عائلتي. كل برتقالة تعصرها تعطيك قليلا من عرقهم، و يخفي كل رحيق طعم حماسهم."[1]

السيد جيميناز صوزا مقتنع كل الاقتناع بأنهم أصحاب الأرض و مالكوها، فيرى أن الشعب الجزائري لن يجلب لأرضه ونفسه إلا الشقاء و خيبة الأمل فهم حسبه: " هؤلاء " الفلاقة" المتمردون ليسوا بناة. تمنح لهم الجنة فيحولونها إلى خراب"[2]

إن والد آندري و آندري نفسه ما هما إلا عينة من عدد هائل من الفرنسيين الذين يعتقدون بنفس اعتقاد آندري و والده ، وأصلا لولا هذا الاعتقاد لما سمحوا لأنفسهم بالبقاء بالجزائر و أخذها من شعبها وإن بالقوة والغصب.

-**جان كريستوف:** صديق يونس الذي لا يرى أحدهما نفسه دون الآخر، لم تكن علاقتهما مجرد صداقة وفقط، بل تعدت ذلك فكانت أخوة وكان الواحد فيهما بالنسبة للآخر السند و الرفيق و الملجأ و القوة وكذلك الضعف، كبرا مع بعضهما و كانت علاقتهما لا تشوبها

[1] الرواية ص: 218

[2] الرواية ص: 220

شائبة ما، لم يعترفا لا بالجنس ولا العرق ولا الدين ، اعترفا بصداقتهما فقط وأنها أجمل شيء قد حدث لكلاهما. فلا و بأي ظرف أو عقيدة كانت يقطعانها، إلى أن حلت اللحظات اللعينة حين حصل أن اعتقد جان كريستوف أن يونس يخونه و يدبر المكائد ليأخذ منه إيميلي التي يحبها...اختار جان بعد هذه الحادثة الابتعاد والاختفاء، ثم بعد ذلك قرر الانخراط في صفوف الجيش السري الفرنسي و كان فيه من أشرس المناضلين ضد الثوار الجزائريين.

لكن قارئ الرواية يدرك أن جان كريستوف يختلف كل الاختلاف عن آندري ووالده من حيث العقلية الكولونيالية، جان لم يختر تلك الطريق إلا حين انتهت به الحلول إلى طريق مسدود، لم يخترها إلا حينما لم يجد شيئا يعيش لأجله، وربما ما دفعه لذلك غضبه الشديد و العظيم من يونس، أضف إلى ذلك صدمة فراقه عن إيزابيل.، لقد كان جان أيام صداقته بيونس أطيب الطيبين و أكرم الأكرمين، حتى أن أصدقاءه حين علموا بالتحاقه في صفوف الجيش استغربوا فليس جان كريستوف هو من يقرر مثل هاته القرارات فلم يقحم يوما نفسه في مجالات السياسة و الحرب و القضايا الوطنية ولم يبدُ عليه ذلك أبدا. حيث شرح يونس الفكرة فقال: " كان قرار جان كريستوف يربك الجميإن الانخراط في الجيش لم يكن من عادة شبان ريو صالادو؛...كي يسلمك نفسه، مقيد اليدين و القدمين، إلى قوانين العسكرية ..."[1]

وكانت آخر محطاته بالجزائر أن قُبض عليه و زُجَّ به في السجن ليمكث فيه ما لابأس به من الوقت. حتى يُطلق سراحه بعد حصول الجزائر على استقلالها.

ب_ الآخر بعد الكولونيالية:

عاد كلٌ إلى بلاده، غادر الكولونياليون الجزائر إلى فرنسا. عادوا إلى موطنهم الأصلي.

أفراد الآخر جميعا يبكون، جميعهم حزين حد الموت، يدعون الموت على ما يشعرون به، يملؤون أرصفة الميناء استعدادا لمغادرة الجزائر وإلى الأبد، أطفال يبكون، شيوخ نائمون،

[1] الرواية ص: 189

حزن عميق يملأ المكان، لم يتوقعوا أن تؤول الأوضاع إلى هذا الحد. لكن بالفعل، المغادرة الآن أمر حتمي لا نقاش فيه، اختيار وحيد لا ثاني له.

لم يقطع آندري رغم ما حصل معهم في آخر محطاتهم بالجزائر علاقته بيونس، بل وكان له الفضل في العثور على إيميلي من أجل يونس، بعث برسالته ليونس يعلمه فيها عثوره على إيميلي كما أضاف فيها بعض العبارات التي تدل على شوق آندري للأيام التي جمعته بيونس و الآخرين بالجزائر ، كان سلميا إلى أبعد الحدود وعلى غير عادته.

التقى بيونس مرة واحدة في فرنسا ، اجتمعوا فيها جميعهم ، آندري، يونس غوستاف، برينو و فابريس، كان اجتماعا حيويا ملأته مشاعر الشوق و الحنين من طرف الجميع، ولا أحد بينهم كنَّ ولو بغضا طفيفا للجزائر ولا لأهلها الذين ملأت زغاريدهم الفضاء فرحا بمغادرة الفرنسيين، لم يتذكروا إلا الأيام الجميلة و اللحظات السعيدة. انتشت القلوب بذلك اللقاء و استحضرت من السعادة ما يكفي للاقتناع بأن ما جميع بينهم يوما لم يكن هلوسة جماعية كما قال آندري.

ما جمعهم حقيقة لا يمكن نكرانها، و ذكريات لا يمكن نسيانها و قوة رابط لا يمكن فكُّها، كما وصف يونس رواد أحد المقاهي الذين رآهم و هو في ترقب لحضور إيميلي، كانوا جميعا يتحدثون بلهجة جزائرية، وملامحهم تحمل ريو و وهران، وجوههم مُسْمرة بشمس الضفة الجنوبية، تبتعد مواضيعهم و تتوه في أبعد الميادين فما تلبث أن تعود لتدور حول الجزائر و حكاياتهم بها كما أدرج يونس قول أحدهم المتمثل في: " الجزائر هي كل حياتي.."[1]

لا يزال حب الجزائر في قلوب المستوطنين سابقا، لا يزالوا يشعرون بذلك الانتماء لها. كان بعضهم يشرب نخب أيامهم بالجزائر و ما قاموا به فيها، لا يمكن أن ينسى أحد ما وإن كان مُستعمِرا أيامه التي قضاها بالأرض المستعمَرة، لم تكن أياما بل مسقط رأس و طفولة و شباب إلى غاية الشيخوخة..

[1] الرواية ص: 271

جان كريستوف آخر من التقى بهم يونس، لم يكن ذلك العسكري، ولا الشخص الغاضب لصدمة تلقاها منه، بل جاءه بشوق و رغبة جامحة في ملاقاة صديقه الذي فرقته عنه تفاهة مراهقة، و غفلة صغر، تعانقا، التحما كما القلب الواحد، تظهر لرائيهما ما عانياه لفراق بعضيهما، تظهر له ما تحملاه من ألم وما خسراه من سعادة لم يكملاها مع بعض، لم يهتم حينها جان كريستوف للأسباب التي أوصلتهما إلى هنا، لم يحتكم في قراره باللحاق بيونس قبل المغادرة إلى تلك اللحظات التي تبادلا فيها النظرات حيث كان جان في أدنى و أذل حالاته، كان همه الوحيد حينها اغتنام الفرصة الأخيرة التي يمنحه إياها القدر ليعيد صديق عمره. وكان ذلك بإقناع من زوجته إيزابيل التي هي أيضا كبَّت كل شيء وراءها وأقنعت زوجها بالذهاب و إعادة الصفاء و السلام لكل من قلبه و قلب صديقه.

إن مواقف الجميع في فترة ما بعد الكولوينالية تكاد تخلو من أي رمز كولونيالي، لا حقد، لا كره، لا استبداد، لا تملك، كانت رضاً بما حدث، ربما لم تكن رضا بقدر ما كانت قناعة أن الأرض في الأصل ليست لهم، وأنهم أخطؤوا يوم كذبوا تلك الكذبة و صدقوها، في قرارة كل واحد من أفراد الآخر قناعة تخبره أن الجزائر للجزائريين و محاولة سلبهم إياها أكبر ظلم قد يحصل، و محاربة الجزائريين وثورتهم لاسترجاع أرضهم هي أكبر حق قد يملكه شخص ما على مر التاريخ.

3-التفاعل بين الأنا و الآخر:

إن المتمعن في أحداث الرواية والمتتبع لتفاصيلها يدرك تشابك العلاقات التي كانت مركزا لأحداثها ومسارها السردي. ، فمن بداية الرواية إلي نهايتها نجد الروائي يحكي أحداثه و مجريات روايته داخل إطار علاقاتي ، كما لا يخفى أيضا لقارئ الرواية أن العلاقات كانت متنوعة، ولم يحصر ياسمينة خضرة العلاقات داخل العرق والجنس والدين بل تنوعت وكان أغلبها وأبرزها تلك التي وردت بين أنًا وآخر ، فرنسي مع جزائري مستعمِر و مستعمَر ....، الأمر الذي ارتأينا وجوب الوقوف عنده والدخول في حيثياته كما لفت أنظارنا نحن كباحثين مدى قدرة ياسمينة خضرة على جذب تفكير و تركيز القارئ إلى نقطة العلاقات الموجودة

بالرواية ، ولا نظن أن قارئ الرواية لم يتساءل عن إمكانية التعايش بين الأنا والآخر كما تصورها ياسمينة ، وهو ما استوجب دراسة هذه العلاقات و البداية ستكون مع:

أ- يونس ولوسات و والدها(صداقة طفولة لم تدرك بعد مجرى الأحداث التاريخية):

بعد أن استقر يونس أو جوناس عند عمه و زوجته وأصبح بمثابة طفل أنجباه من صلبهما وتم التحاقه بالمدرسة كانت لوسات أول محطات صداقته مع أبناء الأوروبيين وأول من اختلط بهم يونس منذ أن التحق للعيش عند عمه ، راقته صحبتها كثيرا و كان معها جد مرتاح مثلما ورد في الرواية بالقول التالي :" أقمت علاقة صداقة مع طفلة تسكن مقابلا لنا ، اسمها لوسات ، كنا في قسم واحد و أذن لها أبوها بأن تلعب معي ، عمرها تسع سنوات ، لم تكن آية في الجمال ، ولكنها كانت دمثة الأخلاق ، وسخية وتعجبني رفقتها"[1]

نعم ، ولا شك في ما قاله يونس فكل ما ورد في الرواية أثناء فترة صداقته مع لوسات يبرهن الصدق والمحبة التي جمعتهما بعض النظر عن أصولهما و مَن أبواهما وما مستواهما وما إلى ذلك من شكليات تُهمُّ السطحيين في علاقاتهم .

تعوَّد يونس و لوسات التجول معا و الذهاب والإياب سوية ، ما زاد من توطد علاقتهما ، برز هذا في مواضع عدة من الرواية مثل : " رافقت لوسات عند خالتها خياطة مختصة في السراويل "[2]، و ورد أيضا :" في الشارع الذي كنا نحب أنا و لوسات التجول و إمعان النظر إلى واجهة المحلات "[3].

لم تكن لوسات بالنسبة ليونس مجرد رفيقة مدرسة وفقط ، بل كانت ملجأً ، أمانًا حضنا ، منزلا ...وفي حين كان بين مئات الزملاء والجيران ، كان لديه لوسات وفقط حتى والدها المدعو جيروم لم يمانع يوما صداقتهما ولم يأبه لأصله وعرقه بل وفي محطات لافتة كان جيروم يعامل يونس معاملة ابن أوروبي بل وكابن له أحيانا كثيرة، برزت سلمية الآخر في

[1] الرواية ص: 65.

[2] الرواية ص : 66

[3] الرواية ص: 66.

علاقة السيد جيروم بيونس من خلال مواقفه اتجاهه، التي إن دلت فإنما تدل على إمكانية التعايش السلمي بين الأنا و الآخر دون صراع و تنافر.

قلنا برزت مواقف جيروم في كثير من العبارات بالرواية ، حيث ورد: " في قاعة السينما حيث يأخذنا لنتسلى بالأفلام الصامتة المتسلسلة ."[1]

ورد أيضا : " يأخذنا لوسات وأنا ، نتأمل المدينة من مرتفعات جبال المرجاجو."[2]

إنه و حتى بين العائلات من نفس الجنس و اللون والعرق والدين قليلا ما نجد مواقف مثل التي تبدر من جيروم اتجاه يونس، وظلت علاقة لوسات و يونس في تطور مستمر ومتانة دائمة حتى حين تضيق النفس بيونس شوقا لعائلته أو لأمر غير ذلك، فهو لا يجد غير لوسات تخفف عنه، بخرجاتهما معا و جولاتهما، ما يشعر به من ضيق خاطر، حيث قال يونس: " في العادة كنا لوسات وأنا نحب التجول في اسكاليرا والاستمتاع يأكل البايلا أو الكالديرو في مطعم شعبي إسباني وكذا شراء بعض الأشياء من عند الحرفيين السفرديين في الدرب"[3].

حلت بيونس وعائلته الجديدة مصائب مضنية ، أخلت التوازن السلمي والعيشة السعيدة التي كانوا يعيشونها ، فبعد أن دخل عم يونس السجن وخرج لم يعد كما كان، ذهب شخص وأتى آخر، ذهب عمه وأتى غريبا، ذهب سليما وأتي مريضا لا حول له ولا قوة ، خفَّ اهتمام جرمان بيونس بعد مرض عمه؛ إذ تفرغت للقيام بالأعمال التي كان سابقا عمه مسؤولا عنها. ، فكان أن بقيت لوسات إلى جانبه وتكفل جيروم بأخذهما معا إلى المدرسة كل صباح ، قال يونس في هذا: " تكفل جيروم بمرافقتي إلى المدرسة ، كانت لوسات

[1] الرواية ص: 77.

[2] الرواية ص: 77.

[3] الرواية ص: 78

تنتظرني في كل صباح عند باب منزلنا ، منشرحة ، ضفائرها مزدهرة بالحواشي ، تأخذني من اليد و تجبرني على الركض للالتحاق بأبيها في أسفل الزقاق"[1].

ربما كانت لوسات أكثر دراية بيونس وبفكره و شخصيته، ممن كانوا أقرب إليهعمه أو زوجة عمه به ، ودليل ذلك استشعار لوسات التغيير الذي طرأ على يونس حين صُدم لمّا رأى والده سكيرا نتنا في أسمال بالية لا يقوى على الوقوف ، حين رآه وقد تجرد من تلك الكبرياء والكرامة اللتين لطالما حافظ والده عليها إن لم يكن دوما فأمام عائلته على الأقل.

هذه الحادثة و ما خالجها من انهيارات و انكسارات سواء من يونس أو من أبيههذه الحادثة التي ألقت بيونس طريح الفراش مصدوما من هول ما رأته عيناه، الحادثة التي أطاحت بصورة والده أمام عينيه ، دخل إثرها يونس في حالة نفسية لم يعرفها أحد، لا طبيب ولا عم و لا زوجة عم ولا أحد غيره ، ظل يونس منقطعا فترة لا بأس بها عن المدرسة ، لا يقوى على التركيز ولا على الحديث ولا حتى على التفكير بأمر غير تلك الصدمة التي تفتك بقلبه لترده فتاتا هشيما تذروه الرياح ، على كلٍ ، بعد أن تحسنت حالته بعض الشيء عاد ليزاول دراسته مع لوسات ، الأخيرة التي انتبهت للتغير الذي طرأ عليه والتي أحست بأن يونس الذي عاد اليوم ليس نفسه قبل الانقطاع ، كانت تعرفه حق المعرفة ، و من المستحيل أن لا تلاحظ تغيره، صغيرة نعم لكن كيف لها أن تغض الطرف عن تغير صديقها الصدوق ولا تلاحظه أو تأبه به ، حيث قال يونس: " اعترفت لوسات بأنني تغيرت ولم أعد أنا نفسه ، تكسر شيء ما بداخلي "[2].

توالت الأحداث و تراكمت إلى أن قرر العم ماحي مغادرة وهران ، لم يعد بإمكانه المكوث أكثر فيها ، انتهى عهده بها ، حددت العائلة وجهتها الجديدة (ريو صالادو).

رأى يونس في الأمر أنه قدره ، حيث كتب عليه الترحال دوما ، وفي كل رحلة يغادر تاركا جزءًا من ذاته ، الجزء الذي رأى يونس أنه سيتركه خلفه في رحلتهم هاته كان لوسات ، لم

[1] الرواية ص: 79

[2] الرواية ص: 70

تكن مجرد زميلة ، ولا مجرد صديقة فقط ، اجتمعت جميع أشكال و أسماء الراحة في فتاة صغيرة هي لوسات ، صديقة يونس الوحيدة ، وإنه لمن الصعب المغادرة و تركها وكأنها لم تكن يوما .

أثناء مغادرة عائلة يونس الصغيرة وصف يونس مظهر لوسات في آخر محطاتها لرؤية يونس و توديعه فمثَّلها قائلا: "كانت لوسات واقفة أمام باب منزلها ، اليدان خلف الظهر ، والكتف على الجدار، لم تصدقني عندما قلت لها بأننا سنرحل، الآن وقد حضرت شاحنة النقل فإنها تلومني"[1] .

لم يستطع يونس أن يناقشها ولا أن يعبر لها عن أسفه ، ولا أن يطيب خاطرها بعبارات تخفف عن قلبها حرقة الفراق التي تجتاحها ، اكتفى بالنظر إلى العمال وهم يخرجون الأثاث والصناديق .

ركب يونس الشاحنة، انطلق هدير المحرك المعلن عن انطلاق رحلة الوداع، المعلن عن الفراق الذي لم يشعر بمرارته أحد آنذاك مثلما شعر به كل من لوسات ويونس انحنى يونس ليلقي نظراته الأخيرة على صديقته ، على أيامه السعيدة ، على ماضٍ جميل لن يتكرر ، قال في هذا: "تمنيت أن تتحرك يدها، أن توجه لي إشارة وداع خفيفة ، لم تتحرك لوسات، بدت كما لو أنها لم تدرك أنني راحل فعلا ، أم أنها رفضت قبول رحيلي."[2]

انتهى عهد يونس بلوسات ، انتهت سعادته معها وانتهت حتى لوسات نفسها مع بداية رحلة جديدة مثلما قال يونس: "تدحرج الزقاق في زئير خردة حديد ثم إختفى ...وداعا لوسات"[3]

–لوسات فتاة أوروبية ابنة أب ملحد ، يونس ابن جزائري مسلم لم تحُل هاته العقائد بينهم وبين بناء علاقة ناعمة جميلة قوية، تعبر علاقة لوسات و يونس عن أن الإنسانية لوحدها

[1] الرواية ص: 81

[2] الرواية ص: 81

[3] الرواية ص: 81

تكفي لتكون رابطا قويا بين البشر ، هذا الرابط الذي لا يحتكم لا إلى لون بشرة ولا جنسية ولا مستوى اجتماعي ، الانسانية وفقط .

يتبادر إلى ذهن البعض في هذا الصدد نوع من الشك و التساؤل ، هل كانت علاقة يونس و لوسات ستؤول إلى ما آلت إليه من قوة و سلم لو كانوا كبارا راشدين ، هل هذا السلم في علاقتهما راجع لبراءتهما وعدم إدراكهما للطبقية و العرق والجنسية ، نتساءل ماذا لو تعرفا وهما بالغان يدرك كل منها قضيته ، الأمر الذي سنتحراه في علاقات أخرى قامت داخل الرواية كانت بين أنًا و آخر ، مستعمَر و مستعمِر.

ب-يونس وأصدقاؤه (من المراهقة في فترة الاستعمار إلى الشيخوخة بعد الاستقلال):

انتقل يونس و عائلته للعيش في ريو صالادو ، طاب له العيش فيها ، راقته الحياة هناك ، شعر وكأن جزءًا من كيانه الذي ضاع في رحلته الأولى من أرضهم إلى جنان جاتو قد استُرجِع، هو مكان مناسب لحياة جديدة حسب عمه ماحي ،

ذاب يونس بين أهل ريو صالادو ولم يشعر يوما أنه مختلف عنهم أو عن جنسهم وأصلهم، ربطته بعض العلاقات، كان في مقدمتها علاقته مع إيزابيل التي اختارته صديقا حميما لها ، الأمر الذي لم يدُم طويلا، حيث قطعت كل ما جمعهما بمجرد اكتشافها لهويته الأصلية، وأنه في الأصل يونس و ليس جوناس كما اعتقدت.

هذه المحطة لم تكن بالمهمة كثيرا لا بالنسبة لأحداث الرواية ولا بالنسبة للجانب الذي نحن بصدد التمحور حوله و دراسته .

توالت الأحداث والأيام في ريو صالادو، ومن هنا إلى هناك و من ذاك إلى ذاك كان يونس يتجول على طرف الكروم، داهمه زملاؤه في المدرسة جان كريستوف وسيمون و فابريس ، هؤلاء الثلاثة الذين تربطهم علاقة صداقة قوية، جاؤوا يونس معتذرين عن تصرف مشين قاموا به معه في المدرسة لسبب ما ، حينذاك و من تلك اللحظة كُتِب لأولئك الثلاثة أن يدخل صديق رابع لمجموعتهم ، هو يونس، أهداه يومها جان كريستوف

حصانا خشبيا كعربون الصداقة التي كانت قد بدأت حينها، والتي صرَّح يونس أنها أروع صداقة عاشها في حياته.

لم يهتم أحد من الثلاثة لكون يونس عربيا ذا أصول جزائرية، بل التحموا كالشخص الواحد، لُقِّب الأصدقاء الأربعة بأصابع المذراة فلم يفترقوا إلا قليلا....قال يونس واصفا أصدقاءه:

– " جان كريستوف لامي ستة عشر سنة و قد صار عملاقا..

- فابريس اسكاماروني الذي يصغرني بشهرين فتى رائع. القلب في اليد والرأس في الغيوم، كان يطمح ليصبح روائيا.
- سيمو بن يامين من يهود الجزائر ، خمسة عشر سنة مثلي تماما، قصير القامة يميل إلى السمنة.."[1].

متلازمون دوما، حيث يقع منزل سيمون بالقرب من منزل يونس، فيمر عليه كل صباح ومن ثمة يترافقان معا للالتحاق بجان كريستوف في أعلى الهضبة حيث أضاف يونس في هذا قائلا: " نحب التجمع تحت الزيتونة المئوية الجاثمة على ذروة المرتفع لنشاهد ريو تتلألأ قيظا عند أقدامنا"[2].

في تلك اللحظات التي ينعزلون فيها عن العالم يكون فابريس آخر من يلتحق بهم محملا بالمأكولات الشهية من صندويتشات و نقانق الكاشير والفلفل المملح والفواكه الموسمية، فيجتمعون يشيدون المشاريع بعيدة الاحتمال و يتبادلون الحكايا والأشعار وقليلا ما كانوا يفتحون حلقتهم لبعض الزملاء أو الأصدقاء و الأقرباء ، حيث شرح يونس هذا في القول التالي: " نفتح حلقتنا لدخول زملاء آخرين و بالأخص الأقرباء

[1] الرواية ص: 100

[2] الرواية ص: 100

صوزا....وآندري الملقب بدادي يدعوني إلى بيته في كل المرات التي يدعو فيها أصدقائي دون أي تمييز "[1].

إن دعوة آندري لأصدقائه سيمون وفابريس وكريستوف أمر عادي متعارف عليه، لكن أن يدعو معهم يونس غير مبالٍ بأصله فهذا يدل على مدى تقبلهم له بل و حبهم الكبير له مرت الأيام والشهور والسنوات و واصل مصير يونس مساره، حل صيف 1942 وأصابع المذراة لا زالوا على عهدهم، يزورون الشاطئ مع بعض، يسترخون، يسبحون ويقيمون حفلات الشواء بكل فرح وسرور.

لم تبرز أي معالم تدل على ازدواجية هوية يونس ، كان مع أصدقائه دوما الشخصية جوناس ، كانت مواقفه جوناسية لا يونسية ، أوروبية لا عربية، إلا في أحيان قليلة جدا ما يتحرك بعض من يونسه في شيء، وإن لم يكن الشيء البارز؛ كان آندري الوحيد بينهم من يملك خادما عربيا جزائريا، وكان قاسيا معه لأبعد الحدود وكثيرا ما أظهر تلك القسوة أمام أصابع المذراة ، الأمر الذي أزعج كلا من جان كريستوف و فابريس وسيمون والآخرين ، حتى إنهم في إحدى المرات وحين تمادى آندري في قسوته على خادمه جلول قال قريبه جوزي بلهجة احتجاج: " دادي، خفف عنه قليلا"[2]، كما أضاف فابريس: " تصل درجة الحرارة إلى 37 درجة ، المسكين من لحم ودم مثلك و مثلي سيصاب بضربة شمس"[3].

وما يدعو للدهشة والحيرة كيف أن فابريس احتج على يونس فكيف له أن يصمد أمام ما يراه من آندري سواءً من فعل قاس اتجاه جلول أو كلمات مسيئة للعرب، الأمر الذي قاله يونس: " أغلق فابريس الكتاب الذي كان يقرؤه، وتفرسني بصرامة: كان يجب عليك أن ترد له الصاع صاعين جوناس"[4].

---

[1] الرواية ص: 101

[2] الرواية ص: 102

[3] الرواية ص: 102

[4] الرواية ص: 102

إن الموقف الذي بدر من فابريس نادر من نوعه، و يثير في النفس شعورا غريبا يُجهل نوعه. كيف لأوروبي أن يغتاض لظلم يتعرض له عربي بل و يستشيط غضبا في حين أن هناك عربيا آخر لا يحرك الأمر فيه ساكنا.

ليس الآخر دائما جائرا ليس دائما ظالما، وليس دائما حاقدا بل مثلما رأينا في علاقة يونس بأصدقائه هناك تآلف وسلم وتعايش بينهم بطريقة قد لا نجدها بين أفراد من نفس الجنس والدين ...لم تكن هذه جملة مواقف أصابع المذراة ولم تتوقف علاقتهم عند هذا الحد بل استمرت لسنوات عديدة ، وكل سنة حملت ذكرياتها و مواقفها التي لا يمكن لأحد من أصابع المذراة نسيانها، وقفوا وقفة الرجل الواحد في وجه نوبات الدهر التي تحل بأحدهم...، يسألون عن بعض يفتقدون بعض وأهمها لا يتخلون عن بعض.

في عبارات كثيرة من الرواية ورد ما يدل على لحمتهم حتى في أتفه الأمور فهم يحشرون أنفسهم فيها ، كيف لا ، أليس الصديق هو من يحشر نفسه في تفاصيل حياتك اهتماما منه بك ؟..وما يدل على ذلك في الرواية نجد: "أزعجني أصدقائي بأسئلتهم "[1] ورد أيضا : " تركني أرتمي على مقعدي ثم سألني: ماذا تريد منك السيدة كازيناف؟"[2]، ضف إلى هذا قوله:

"– همس لي سيمون:

- خفف عن نفسك قليلا؛
- ماذا تقول؟
- توجد مرآة داخل الحانة ، اذهب وألقِ نظرة على وجهك الأحمر مثل الشمندر ، ألا تكون متيما بهذه الأم المحترمة؟ "[3].

[1] الرواية ص: 116

[2] الرواية ص: 118

[3] الرواية ص: 119

عادت الأحداث لتتوالى على الجميع ، تتطور وتتغير؛ حاز فابريس اسكاماروني على الجائزة الوطنية الأولى للشعر، فتقدمت أمه لأخذ أصدقائه الثلاثة كريستوف وسيمون ويونس لحضور حفل تكريمه.

لم تميز السيدة اسكاماروني بين أصدقاء ابنها ولم تهمش يونس كونه ليس من بني جلدتهم ، بل كانت تعاملهم كلهم دون تمييز أحدهم عن الآخر ، وليست هذه المرة الأولى من نوعها ، حيث تتكفل السيدة اسكاماروني باصطحاب ابنها و أصدقائه في سيارتها بل تكرر ذلك مرات عدة فتارة للبحر وتارة لحفل ما و تارة لوهران ، الأمر الذي ورد في قول يونس: " تحشرنا نحن الأربعة في المقعد الخلفي لسيارتها الصلبة ذات الست أسطوانات والخمسة عشر حصانا وتقودنا إلى شاطئ ترغا"[1]، وأيضا: " ستعود مدام اسكاماروني بمفردها إلى القرية، فتحت لنا غرفة فوق إحدى محلاتها، شارع الصيادين وحرصت على أن نعدها بأن لا نرتكب حماقات في غيابها "[2].

مرت السنوات وكبر أصابع المذراة ولا زالوا على عهدهم ولم يفرقهم شيء، نعم التهوا قليلا، كلٌ بمشاغله لكن لاتزال علاقتهم قائمة متينة، أمضوا أياما جميلة في الحانة التي افتتحها آندري.

بعد مرور الأيام والأشهر و حين بدأ كل واحد منهم يفكر في تكوين حياته العاطفية الخاصة تزعزعت بعض من قواعد صداقتهم ، وإن لم تسقط إلا أنها هشت؛ دخلت الفتاة الجميلة التي أخذت عقل سيمون وأصبحت حبيبة جان كريستوف و فابريس الذي هام بها حبا وأخيرا يونس الذي أحبته هي حد الجنون، فلطالما كانت تحبه وتكن له مشاعر قوية لطالما خبأتها و لم تجهر بها؛ كيف لأربع أصدقاء أن يكونوا مع فتاة واحدة ، كيف لهم أن يبقوا بنفس الصفاء وقلوبهم معلقة بفتاة واحدة، ايميلي دخلت بين أصابع المذراة فشتتهم، رغم مقاومتهم للبعد، لكن كان البعد قد قُدِّر لهم وللأسف الشديد.

[1] الرواية ص: 100

[2] الرواية ص: 106

وكثيرا ما تحز في نفس أحدهم حرقة البعد الذي طال تلك العلاقة القوية التي جمعتهم مثل فابريس الذي افتقد يونس وكثيرا ، الأخير الذي يتعمد تجنب اجتماعاتهم المعهودة التي كانت ايميلي دوما طرفا فيها ، حيث قال فابريس في مكالمة له مع يونس:

" – أتلومني على شيء جوناس؟

- لا
- هل أزعجك سيمون في الأيام الأخيرة؟
- لا
- هل لك شيء ضد جان كريستوف ؟
- طبعا لا
- لماذا تتجنبنا ؟"[1]

أقفل فابريس الخط داعيا يونس و أصدقاءه إلى العشاء، أو ربما لم تكن دعوة عشاء بل كانت دعوة إحياء الصداقة و إعطائها رونقها السابق و إضفاء الحياة عليها.

اشتاق فابريس ليونس تلك الليلة أكثر من الآخرين ، استقبله بعناق حار إن دل فإنما يدل على الشوق العظيم له، لم يدر بخاطر أي من جان كريستوف أو سيمون أو فابريس أن بُعد يونس قد يكون لقناعة اكتسبها حديثا اتجاه قضيته ، أو لانشغاله بالنضال لاسترداد حرية وطنه المسلوب.

لم يفكر أحد من أصدقائه على هذا النحو أبدا، لأنهم يعرفون حق المعرفة أنه لا يمكن لصداقتهم أن تنهار لمثل هكذا أسباب أو بالأحرى ليس يونس الشخص الأنسب ليتخذ هكذا أسباب يقطع من خلالها صداقته مع أبناء الأوروبيين التي يعتبرها أروع ما قد حدث في حياته يوما ما.

[1] الرواية ص: 169

كان عناق فابريس له حارا مثلما قال: " أخذني بين ذراعيه وضمني أكثر من الآخرين"[1]، حتى عندما استثار جان كريستوف غضبا وتفوه بتلك الكلمات القاسية ليونس حين ظنه خائنا له بعد سماع ما قالته إيميلي له من عبارات الحب و الهيام ، لم يُكِن يونس اتجاهه بعدها لا ضغينة ولا ذرة حقد، كانت كلمات جان ليونس قاسية فقد قال له: " اذهب إلى الجحيم أيها القذر ، اذهب معها إلى جهنم، لست إلا حقيرا منافقا وسخا ، مزبلة خراء"[2].

وقال أيضا: " ألعنك ! ألعنك وألعن اليوم الذي وضعك في طريقي! لا أريد أن أراك ولا أن أسمع صوتك إلى يوم الدين ، يا منافق، يا حقير، يا جحود!"[3].

اختفى جان كريستوف تحت تأثير الصدمة التي تلقاها من يونس ، أو على الأقل الصدمة التي اعتقدها جاءته من يونس ، همَّ الثلاثة بالذهاب لوهران بحثا عن صديقهم الضائع أو المختبئ ، لكن لا خبر عنه .

مرت الأيام والأشهر ، قُدِّر لفابريس الزواج من هيلان المذيعة ، وسيمون من ايميلي، الزواج الأخير الذي لم يكن له من قبل أي بادرة، لكنه قدّر له أن يكون، وعادت صداقة أصابع المذراة لتتلاشى كلٌ له سببه و دوافعه، جان كريستوف لا يزال مختفيا، فابريس غادر وعائلته ريو متجهين إلى عين الترك، سيمون تفرغ لبناء مشاريعه والاهتمام بعائلته ، إيميلي و ابنه الصغير الذي جمع في ملامحه بين أمه ايميلي و والده سيمون ليشكل محياً لطيفا، بقي يونس وحيدا فاختار العودة إلى وهران فما بقي شيء في ريو يستحق البقاء ، بحث عن لوسات ولا أثر لها مكث هناك بعضا من الوقت ، ليرمم بعضا من ما تلاشى من كيانه ، فما مر عليه بريو صالادو كان صعبا ، لم يفقد صديقا ، ولا حبيبا ، بل فقد أصدقاء حياته و حبيبته التي فرضت عليه العقائد و القوانين الإلهية عدم الارتباط بها؛ رغم أن شعور الحب كان متبادلا بينهما لكن من المستحيل أن يتحقق ذلك فالشاب خلوق مسلم و أن يقع في

[1] الرواية ص: 171

[2] الرواية ص: 182

[3] الرواية ص: 82

جريمة مثل التي كان سيقع فيها لو إرتبط بايميليكانت ستحل عليه اللعنة. الأمر الذي لم يرد يونس حصوله.

استعاد يونس جزءً من نفسه التي ضاعت بين آلام الفراق و خيبات الانتظار ، عاد إلى ريو ، وهران بالنسبة ليونس هي موطن حضارته ، موطن دخوله الحياة ، موطن بداية السعادة آنذاك ، موطن الراحة والهناء، وهران موطن يونس الذي أخرجه من خضم الشقاء ، كذلك ريو الأوروبية السكان هي أيضا موطن آخر ليونس ، لم يحس يونس يوما أنه يعيش حياة غير الحياة التي يعيشها أبناء بلده ، لم يعاني معاناتهم ، ولم يشقَ شقاءهم، ولم يُدَس مثلهم، بل لطالما عُزِّز و كرِّم بين الأوروبيين ، راقته حياته بينهم، نسي من يكون وهو يتقاسم حياته معهم، لم تؤثر تلك الفترة التي عاشها في جنان جاتو عليه ولا على مواقفه واعتقاداته، بل عايش الأوروبيين وكأنه واحد منهم وصادق أبناءهم فكان ذا هوية أوروبية أقرب من كونه جزائري الدم ، مستعمَر الوطن، مُغتصب الحرية .

مات عمه وكانت آخر وصاياه ليونس ب: "تزوج يونس، الحب وحده قادر على أن يثأر لنا من نوائب الدهر".[1]

لم يتزوج يونس بحبيبة قلبه إيميلي ، ولا بحبيبة غيرها؛ عاد كريستوف لكنه لم يلتقيه ولا مرة ، كان كريس رافضا إيه والاعتراف به كصديق مجددا ، عاد أصابع المذراة ليجتمعوا و يحتفلوا كسابق عهدهم ، لكن هذه المرة نُبِذَ يونس خارج المجموعة رغبة من كريستوف الذي يبدو أنه لا زال محافظا على أحقاده اتجاهه.

مات سيمون وماتت معه رغبة إيميلي في الحياة ، ظلت تساير الأيام وتعطيها حقها في ترقب الغد، لكن دونما أي رغبة و دون أي شغف بها ، وعاد آنذاك الشوق يتسلل إلى قلب يونس ، اشتاق لايميلي، يتخيلها قبالته يحادثها لساعات ، كان هذا وسط الفوضى التي قامت في ريو صالادو حيث تحول الفرح إلى مأساة و الأعراس إلى جنائز، عمليات القتل والاغتيال لا ينفكان يتوقفان حتى تعقبهما عملية تمشيط أخرى أو نهب، وتوالت الأمور على

[1] الرواية ص: 209

هذا النحو ، النحو الذي ظل يونس خارجه وكأنه في عالم غير العالم الذي يعيشه أهله و شعب بلاده، لم يقحم نفسه في أي من أمور البلاد وأمنها و ثورتها كان حياديا اتجاه القضية الوطنية بطريقة مبهرة ، لا يملك لا آراءً ولا مواقف ، كان كل همه ايميليملأت عقله وقلبه فلم تترك مساحة لقضيته ، حيث غادر ريو صالادو إلى وهران بحثا عن إيميلي ، أراد استرجاعها ، أراد أن يسابق الزمان لأن الأيام أخذت منه الكفاية لم يكن على استعداد أن تأخذ منه إيميلي مرة أخرى ، إيميلي بالنسبة له حينها كانت آخر أمل في الحياة وفي السعادة عامة.

غادر ريو غير آبه بما يجري في البلاد ، غير مكترث للثورة التي قامت ، وغير آبه بقضيته ، لا تحرك هويته في إطارها الكولونيالي ساكنا، كان يضع نصب عينيه إيميلي وفقط حيث قال: " و خلال شهور و شهور ذرعت شوارع وهران جيئة و ذهابا آملا في العثور على إيميلي"[1].

لم يستطع يونس استرجاع إيميلي ، ضاعت ولا مفر من البقاء وحيدا يعزي نفسه فقدان حبيبته؛ توالت الأحداث على الجميع ، أشخاصا و أمكنة ، استقلت الجزائر ، ولم يكن ليونس المواقف البارزة في استقلال البلاد، عاد الأوروبيون إلى مواطنهم، حمَّلوا حقائبهم وجروا وراءهم أيامهم و ذكرياتهم في بلد عاشوا فيه أجمل أيامهم ، أصدقاء يونس ومعارفه وجيرانه كلهم على حافة الطرق ينتظرون أدوراهم للمغادرة .

استقلت البلاد وغادر الأوروبيين ، و عاد الشعب الجزائري سعيدا، فرحا باسترداد أرض أجداده التي حارب من أجلها و خسر الغالي والنفيس لحريتها.

ركب يونس الطائرة متجها إلى فرنسا ، اجتمع يونس بأصدقائه هناك ، التقاهم في جلسة جماعية استحضروا فيها ذكرياتهم الجميلة التي لا تنسى بالجزائر، استحضروا أيام السعادة التي قضوها في ذلك البلد الذي لطالما ظنوه أرضهم فعمروها وشيدوا فيها البنى، استحضروا مواقفهم المضحكة التي جمعتهم ومواقفهم الحزينة أيضا ، استحضروا ريو

[1] الرواية ص: 234

صالادو ذلك المكان الذي نُحِتَتْ أيامه في قلوبهم قبل عقولهم ، ومن ما ذكروا من لحظاتهم بها:

-سألني آندري:

-لازلت على عادتك لا تشرب الخمر؟

-ولا قطرة.

- أنت لا تعرف ماذا تضيع"[1].

كما أضاف يونس: " لقد أحيينا موتانا وشربنا على نحبهم؛"[2]

بكى يونس بعدها لوفاة إيميلي ، حب حياته الضائع، زار قبرها، استحضر صورها ملامحها علاقتهما التي لم تكن أصلا ، علاقة روحية فقط.....التحق جان كريستوف أخيرا؛ في المطار حين مغادرة يونس لفرنسا في زيارته الأخيرة لها، لم يطل لقاؤهمالكن كان لقاء تاريخيا ملؤه مشاعر الشوق والعتب و انهمرت دموع كل منهما ، فكان اثنيهما ينتظران هذه اللحظة منذ سنوات طويلة عبر عن هذا اللقاء يونس فقال: "ارتمينا في حضني بعضنا البعض. كما لو أن مغناطيسا قويا جذبنا. كنا أشبه بنهرين يتدفقان من جهتين متقاطبتين ، يجران جميع عواطف الأرض"[3]

تدمع العين لما جرى بين جان و يونس ، تبادلا أطراف الأسئلة حول أحوالهما و ظروفهما ، كانت سعادتهما حينها أكبر سعادة تحدث آنذاك على الأرض ، لم يطل لقاؤهما لكن كان بمثابة جرعة دواء يأخذها مريض يموت ألما فيهدأ بها وينام نوم الأطفال راحة و سكونا ، افترقا على نداء المطار الأخير ليونس بأن يلتحق بالطائرة، غادر تاركا الجميع خلفه، نظر للمرة الأخيرة رآهم مقابلين الواجهة الزجاجية يبعثون له بإشارات الوداع .

[1] الرواية ص: 284

[2] الرواية ص: 285

[3] الرواية ص: 294

ليسوا بالنسبة ليونس أوروبيين، ليسوا بالنسبة له أبناء البلد المستعمِر ، إنهم مرآة طفولتهحياته ، حبه ، و كل العالم.

ج- يونس وإيميلي(طفولته، شبابه، شيخوخته في فترة كولونيالية وما بعد كولونيالية):

لا تصور الرواية يونس كشخصية مناضلة ، حاربت لأجل قضية وطنها واسترداد هويتها بقدر ما تصور الجانب العاطفي من حياته. ، فكانت الرواية من بدايتها إلى النهاية تحكي مشاعر حب جياشة حرمت من التحقق على أرض الواقع ، سردت معاناة يونس العاطفية ، منذ أن كان ضحية نزوة عابرة منعته أن يظهر مشاعره في العلن و يمارسها، فما كان أمامه إلا تجرع الألم والاحتفاظ بكل شيء في قلبه، إيميلي حبه الأبدي وحبه المحرم، تلك الفتاة الأوروبية ، التي غضت الطرف عن جنسية يونس وعن من يكون و ابن من، أحبته شخصا بمعزل عن كل المؤثرات الخارجية ، وحاربت من أجل أن تحظى به زوجا لولا معرفة يونس أن أي ارتباط بها سيُحِلُّ اللعنة عليهما، حتى في لحظاتها الأخيرة قبل زواجها ، قاومت وحاولت حتى أنهكها الألم ولكن يونس لا يستجيب لنداء الحب، رغم حبه العظيم لها، إيميلي أحبت يونس وجوناس و الأوروبي والجزائري والمسلم و ابن الفئة الضعيفة و ابن المناضلين ، أحبت يونس في جميع حالاته ولا يزال يونس لا يستجيب، بدأت علاقتهما وشرارة الحب بينهما منذ الصغر، منذ كان يونس طفلا لا يفقه في هذه الأمور شيئا، حين كانت ترتاد صيدلية عمه أيام مرضها، منذ تبادلا أطراف الحديث و وضع يونس وردة داخل كتابها الأمر الذي عبر عنه يونس وقال: " تركت إيميلي كتابها على المقعد، كانت هناك مزهرية فوق صوان جانبي؛ قطفت وردة و دسستها داخل الكتاب قبل أن أصعد إلى غرفتي [1]"

رغم صغر يونس حينها إلا أنه شعر ببعض الانجذاب نحو إيميلي ، افتقدها طويلا حين انقطعت عن ارتياد الصيدلية، انتظرها لكن لم تعد. توالت الأيام والسنوات حتى ظهرت إيميلي ثانية، نعم عادت وكانت أجمل وأروع وأفتن ، خطفت قلوب أصابع المذراة أربعتهم، لم

[1] الرواية ص: 88

يدرك يونس في البداية أن هذه الحسناء الفاتنة ذات العينين المُربكتين والنظرة العميقة هي إيميلي التي التقاها آنفا في الصيدلية، اختلطت وقتها مشاعر الجميع و ضربت عاصفة عاطفية على قلوب جميع أصابع المذراة بسبب إيميلي ، لكن الذي فاز بقلبها وحبها كان يونس ، ربما من سوء حظه وربما من حسنه، لكن القدر كان قاسيا جدا وأضحت علاقتهما مستحيلة التحقق، عانت إيميلي جراء هذه الاستحالة ، فقدان السعادة والقلب احترق والدموع جفت، يحبها كل من يراها، ومن أحبته هي لم يحبها من وجهة نظرها، لكن الحقيقة أن يونس كان يبادلها نفس المشاعر بل و ربما أعظم منها، صرح يونس بمشاعره اتجاه إيميلي في عبارات كثيرة منها: "فتحت الباب، فوجدت ايميلي خلف المصرف. قالت وقد ظهرت المفاجأة على محياها هي أيضا:

-مساء الخير.

خلال ثوان، نسيت السبب الذي جئت من أجله، يخفق قلبي مثل حداد على سندانه."[1]

بمجرد رؤية يونس لايميلي نسي حتى ما جاء لأجله، هذا إن دل فإنما يدل على هيامه القوي بها و ولعه الشديد أيضا. اعترفت إيميلي بحبها ليونس وجها لوجه ، عبرت عن كل ما يختلج نفسها اتجاهه، فقالت: " لأقول لك...أنني أحبك أنت.....

لم تفهمني؟...لم أكن أرتمي في حضن هذا و ذاك إلا لتراني، لم أكن أضحك بملء شدقي إلا لتسمعني...لم أعرف كيف أتصرف معك، كيف أقول لك أنني أحبك"[2]

تجرأت إيميلي و صارحت يونس ، لم يحدث الأمر لمرة واحدة ، ظلت ترتاد إليه و كلها أمل في أن يستسلم يونس لحبهما؛ لكن وللأسف لم يستجب للنداء أيضا، ترجته ، بكت لهحاولت معرفة سبب رفضه لحبها فقالت: " يبدو أنك تتعمد إذلالي. لماذا؟ ما هو اللوم الذي توجهه إلي ؟؟

...-

[1] الرواية ص: 179

[2] الرواية ص: 185

-هل بسبب الدين؟ لأنني مسيحية وأنت مسلم، هذا هو، أليس كذلك؟

-لا.

ما الأمر إذا؟؟..."[1].

خطر في بال إيميلي أن اختلاف الديانة بينها وبين يونس هو سبب رفضه لها، لم يخطر ببالها أبدا الحقيقة التي حُرمت جراءها حبها، كما أن يونس أيضا لم يقل لها ولا حتى تلميحا ما، ربما لو أن ما حدث بينه وبين والدتها ما كان حدث ، لتغير كل شيء ، لم يكن يونس حينها سيأبه لا لديانة ولا لأصدقاء ولا لقضية وطن، كان سيسابق الزمن في الحصول على إيميلي زوجة له، لكن ما حدث قد حدث، و علاقتهما مستحيلة داخل إطار الدين باختلاف نوعه، ليس يونس الشخص الذي يُجرم هذا الجرم في حق الآلهة وقوانينهم...

وافت إيميلي المنية وهي في فرنسا بلدها الأم، و ما ربطها بيونس شيء يذكر. أصلا لم يكن الموت مفرقهما، فقد تفرقا حين كانا على قيد الحياة ، حين أتت الفرصة إليهما تفرقا، حين كان بإمكانهما أن يرتبطا دون أي اهتمام بشيء تفرقا ، فهل من الصواب إلصاق التهمة والعتب على الموت على أنه فرق بين قلبين عشيقين اختار أحدهما التضحية بالحب على أن يلحق اللعنة فيحل الشقاء به و بحبيبته، كان قرار يونس حكيما إلى حد بعيد ، وظل مقتنعا به إلى آخر أيام حياته.

د- العم ماحي و جرمان(حياة زوجية ناجحة في خضم الاستعمار):

تزوج عم يونس السيد محي الدين بجرمان، التي التحق يونس بالعيش عندها وهي صاحبة الأربعين سنة، أوروبية الأصل، لم يحُل أصلها بينها وبين الارتباط بالسيد ماحي لم يقدر الله لهما أن يرزقا بطفل للأسف، لكن جاء يونس ليصبح ابنهم الروحي، عاش معهما وتلقى منهما أطيب المعاملة وأجملها ، لم يشعر يوما بأنه غريب بينهم، كانت جرمان تحرص عليه و تحبه حب الأم لولدها، فكان لها هدية الله في دنياها، قال يونس في هذا:

[1] الرواية ص: 191

"ضمتني بقوة إلى صدرها؛ أحسست حتى بخفقات قلبها. تفوح عطرا طيبا مثل حقل من الخزامى، و زادت الدموع التي تلألأت على جوانب أهدابها من تعميق اخضرار عينيها."[1] كان فرحها عظيما بيونس ، واستقبلته أيما استقبال ، ودللته أيما تدليل، كانت علاقة جرمان والعم ماحي علاقة جد جميلة . ملؤها الحب والرضا والدعم والأهم من هذا التقبل. رغم أنها أوروبية وابنة البلد المستعمِر ، البلد الذي كان العم ماحي من المناضلين لاسترداد حريته إلا أنهما كان متقبلين لطبيعة بعضهما لحد بعيد ، حتى في الأوقات العصيبة التي مرت على العم ماحي كانت جرمان سنده الثابت ، حتى عندما تم اعتقاله بتهمة التحريض على الثورة والنضال السياسي، كانت جرمان خلفا له ، حيث قال يونس: "استرجعت جرمان السيطرة على شؤون العائلة. واهتمت شخصيا بتسيير الصيدلية، كانت في الفرن والطاحونة في آن واحد، ولم تمر أيام حتى أهملتني كانت الحالة الذهنية لزوجها تتدهور على مرأى العين، وأرعبها رفضه الصارم أن يفحصه الطبيب، أحيانا تنهار أعصابها و تنفجر بكاءً وسط الصالون"[2]

هي تثق في زوجها ، وتثق في المسار الذي اختاره ، وفي قضيته، ظلت صامدة لأجله فقط، حتى حين قرر مغادرة وهران تاركا كل شيء وراءه ، جرمان وافقت بكل صدر رحب ، رغم أنه لم يهن عليها ترك بلدتها مسقط رأسها ومنزلها إلا أن زوجها أعظم بالنسبة لها من كل شيء.

لم يعُد السيد ماحي من السجن مثلما ذهب، تغير كلية، الأمر الذي أدركته جرمان في **العبارة التالية:** " أدركت مباشرة أنهم لم يرجعوا لها زوجها كاملا."[3]

تعرف جرمان زوجها جيدا ، تفهم تحركاته، تحس به، فحينما آل وضعه لما آلة إليه من سوء كانت هي عمود المنزل بعده، همها الوحيد أن يعود لسابق عهده. ظلت الأمور على الحال نفسه ، وظل العم ماحي على حاله. لقي حفيد السيدة جرمان حتفه وكان من

[1] الرواية ص: 50

[2] الرواية ص: 79

[3] الرواية ص: 79

الواجب حضورها و زوجها مراسم الجنازة والدفن ، لكن رفض العم ماحي الذي ساءت حالته مرافقتها، ما ذُكِر في العبارة التالية: " رفض عمي الذي ساءت حالته النفسية و غرق في صمت مريض مرافقتنا لحضور الجنازة."[1]

كانت جرمان تستقبل جميع آراء و مطالب زوجها برحابة صدر ، تنتظر اللحظة التي يعود فيها زوجها كما كان . كانت خائفة عليه من أن يزداد سوءً، لم يكن وضعه يبشر خيرا، تعرض بعدها لنوبة قلبية كادت تودي بحياته، وكادت تودي بحياة جرمان خوفا عليه، ذكر يونس هذه الحادثة فقال:

" لم تعرف جرمان ماذا تقول. لم تتلفظ بأدنى كلمة منذ أن نقل زوجها إلى المشتشفى. كانت عيناها الهلعتين تتدحرجان على وجهها الشاحب. ضمت يديها تحت ذقنها و حطَّت عينيها لتتمتم بدعاء."[2]

سهرت جرمان شخصيا على راحة زوجها و صحته. مرت الأيام وعادت صحة العم ماحي لتستقر شيئا فشيئا و استرجع المنزل شبه توازنه، ظلت جرمان بجانبه تفعل كل ما قد يعيد زوجها لممارسة حياته الطبيعية حسب يونس الذي قال: " تتعمد جرمان فتح أبواب الشرفات على مصراعيها، كانت تحلم برؤيته يسوي طربوشه يمسد مقدمة صداره...."[3].

كانت تعتبر أن أعظم فرحة لها تلك التي ستشعر بها حين يعود زوجها كما كان وبالفعل ربما دعاؤها كان مفيدا، ها هو العم ماحي يستعيد الحياة نفسا وراء الآخر، على النحو التالي: : رأيت عمي ينزل أدراج السلم بخطوات ثابتة،....مرَّ قربي وبمبذله...خرج إلى الزقاق.....لم تصدق جرمان عينيها وهي التي كانت تتبعه خطوة بعد خطوة."[4]

---

[1] الرواية ص: 93

[2] الرواية ص: 131

[3] الرواية ص: 137

[4] الرواية ص: 159

عاد العم ماحي تقريبا لطبيعته و ليمارس حياته بشكل طبيعي، و جرمان حينها أسعد نساء الأرض ، كان يشكل هو وجرمان ثنائيا منسجما ، ثنائيا سعيدا رغم الاختلاف والتباين ، إلا أن الحب وحَّدهما ، بالنسبة ليونس هما عصفوري حب طائرين في الفضاء لا تزُدُّهما للأرض لا الجاذبية ولا تحطهما أرضا الرياح، كان يراقبهما حين يخرجان للتنزه حيث قال: " يخرج باستمرار للتجول، برفقة جرمان. أحب أن أراهما يمشيان جنبا إلى جنب. وسط البساتين ، ملتحمين إلى حد لا يعيران إلا اهتماما خفيفا للعالم المحيط بهما. يوجد في بساطة علاقتهما، في سيولة وحدة شعورهما لطف و عمق و أصالة تحولهما إلى قديسين تقريبا. يشكلان الزوج الأكثر احتراما رأيتهما في حياتي. عندما أشاهدهما وهما يتجولان مكتفيين بنفسيهما، تنتابني سكينة لا حدّ لها و تملؤني بفرح جميل كجمال سعادتهما الخجولة ."[1]

أطال يونس في وصف قديسي الحب، ولم يكتفي بوصفهما في عبارة أو اثنتين وهو الذي لا تجذبه مثل هذه الأمور كثيرا، وهو الذي يكتفي بالصمت في معظم مواقفه وحالاته، لكن وهو أمام أرقى أمثلة الحب لم يستطع المحافظة على صمته، إنه يعشق ذلك الانسجام بين عمه و زوجته، تجذبه تلك الانسيابية بينهما، يحيره مدى ذلك، بين من؟ بين زوجين كلٌ من دين وكلٌ من جنسية و كلُ من أصول، الأدهى من كل هذا هي ابنة البلد المستعمِر، الغاشم المستبد، البلد الذي يكرهه هو، البلد الذي يناضل هو لإخراجه من الأرض، فهو في المقابل ابن البلد المستعمَر، المغتصَب، إنها معادلة نادرا ما تتحقق ولكن حدث و تحققت بين العم ماحي وجرمان، ليس من الغريب إذا أن يعجب يونس ذلك الإعجاب بهما، فهما حقا رمز للحب و الوفاء. لأن الحب الحقيقي لا يعرف وطنا ولا جنسا و لا هوية، حين يأتي نعيشه و نسير بموجبه فقط.

[1] الرواية ص: 178

الخاتمة

الخاتمة:

تهدف هذه الدراسة إلى النظر في الإرث الثقافي و الوضع الاجتماعي السائد من منظور ما بعد الكولونيالية، و كذلك الكشف عن أنساقها الفكرية المترسبة في طياتها، و قد ارتكزت هذه الدراسة على عدة عناصر نظرية في مجال الدراسات مابعد الكولونيالية، حيث يشير مصطلح ما بعد الكولونيالية إلى الفترة التي عقبت الاحتلال و يتسع كذلك مفهومه ليستوعب كل ما يترتب عن الفعل الاستعماري، و ما بعد الكولونيالية كنظرية تسعى إلى فضح الخطاب الاستعماري و تفكيك مقولاته المركزية التي تعبر عن الهيمنة والتمييز العرقي و الطبقي، النقاط الأخيرة التي تجسد جلية في عمل الروائي ياسمينة خضرة الموسوم ب: فضل الليل على النهار.

حيث توصلنا من خلال تحليل الرواية إلى ارتكاز محورية البطل يونس على شخصيتين، الأولى مضمرة ومهمشة تحت راية يونس، والثانية مركزية ومفعمة تحت راية جوناس، مما يجعل القارئ يجد صعوبة في تحديد هويته. وكذلك العلاقات المتداخلة والمتشابكة التي شكلت روابطا متينة قوية مع يونس. إذ أن دراستنا بالنسبة لشخصية يونس في جنان جاتو التي تظهر لنا للوهلة الأولى قوية ومتينة مع شخصيات المركزية والهامشية؛ لكن في الجانب الآخر نلمس تلاشي هذه العلاقات وتبدد مشاعر يونس اتجاه الشخصيات خاصة مع عائلته، إذ به قطع صلة الوصل بهم، واستحوذت عليه مشاعر البرودة واللامبالاة اتجاههم، أما إذا انتقلنا إلى شخصية جوناس فنجدها مفعمة بالحب والحياة اتجاه شخصيات الآخر سواء الهامشية أو المركزية، خاصة مع الثلاثي الذي شكل جسر الصداقة الأبدية له بالرغم من المنعرج الذي أضعف صداقتهم.

"جان كريستوف، سيمون بن يامين، فابريس"، والشخصية المحورية في حياة جوناس التي تمثلها إيميلي إذ تعتبر القضية الرئيسية لجوناس والأزمة الثانية التي عاشها بعد أزمة الهوية التي عانى منها، فمن خلال دراستنا إشكالية البطل يونس في تتبع تشكل مسار هويته نلمس تواتر هوية يونس بين شخصيتين متضادتين. وتظهر هذه الشخصية المتقلبة بوضوح ضمن مواقف صادفها يونس في مسار حياته، إذ تارة نلمس هوية يونس تتغلب على هوية جوناس المستعارة ، وتارة الهوية المستعارة تتغلب على هوية يونس خاصة

من الناحية الزمنية والمكانية، حيث أن الفترة التي عاشها جوناس ضمن حيز الآخر في كل من وهران وريو صالادو تتغلب على الفترة على عاشها في الريف وجنان جاتو ضمن كنف الأنا، وبذلك يمكن إرجاع أزمة هوية البطل إلى تأثره القوي بالبيئة التي عاش فيها من جهة ، و رغبته في الهروب من تلك المعاناة في جحيم جنان جاتو من جهة أخرى .

ومن هنا فإن إشكالية البطل يونس تجعله محصور في زاوية ضيقة تفرض هيمنة وسيطرة الآخر على تفكيره وكيانه على حساب الأنا.

من ناحية أخرى جوناس يجسد نموذج حي متشبع بالثقافة الفرنسية، متفاخر بهويته الجديدة ومعلن الولاء لخدمة مصالح فرنسا، وهذا النموذج يمكن القول عنه أنه فجوة من خلالها تستطيع الولوج في الشؤون الجزائرية و فرض سيطرتها بكل سهولة على الرغم من استقلال الجزائر ولو ظاهريا عنها، إلا أن هناك جانب خفي يظل في خدمة مصالحهم وجوناس يجسد هذه الشخصية بكل معالمها الظاهرة من خلال ما سبق ذكره، والمخفية التي تظهر من خلال العلامات السيميائية التي أشار إليها السارد خاصة ضمن عنوان الرواية الي يعني فضل فترة الاستعمار الفرنسي على الجزائر باعتبارها فترة خدمت الجزائر، وكذلك سيميائية اسم جوناس الذي شكل القاعدة الأساسية في بناء النص مقارنة مع سيميائية اسم يونس الذي يكاد يختفي ضمن الصفحات الأولى من الرواية، تكشف كل ما أراد السارد تغطيته بستار الهيمنة غير المباشرة للآخر على الانا ليبرر مدى فضل الآخر في خلق أنا تندمج ضمنهم، وتخدمهم بعد فرارهم من الجزائر مهزومون وبالرغم من الفارق الجغرافي الذين يفصلهم عنهم ، إلا أن الأنا ظلت في خدمتهم وتسعى تحقيق مصالحهم عن حساب الأنا أحادية الهوية (الجزائر) بهدف فرض سيطرتهم بأمثال جوناس .

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر و المراجع:

أولا-المصادر:

1-ياسمينة خضرة، فضل الليل على النهار، تر: محمد ساري، وزارة الثقافة

ثانيا- المراجع

1-أحمد عمر مختار، معجم اللغة العربية، عالم الكتب، القاهرة، ج1، 2008.

2-ادوارد سعيد، الاستشراق(المفاهيم الغربية للشرق)، تر: محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع،ط1، القاهرة،2006.

3-اسماعيل عبد الفتاح الكافي، الموسوعة الميسرة للمصطلحات السياسية، دط، دت.

4-آمال علاوشيش، ما بعد الكولونيالية ضمن خطابات ما بعد الكولونيالية، مجموعة مؤلفين، ط1، 2013.

5-آنيا لومبا، في نظرية الاستعمار و مابعد الاستعمار الأدبية، تر: محمد عبد الغني غنوم، دار الجوارللطباعة و النشر و التوزيع، ط1، سوريا، 2007.

6-بول ريكور، الذات عينها كآخر، تر: جورج زيناتي، مركز الدراسات الوحدة العربية، ط1، 2005.

7-بيل إشكروفت و آخرون، دراسات مابعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية، تر: أحمد الروبي و آخرون، المركز القومي للترجمة، ط1.

8-تشيلي وليا، ادوارد سعيد وكتابه التاريخ، تر: أحمد خريس و ناصر أبو الهيجاء، أزمنة، الأردن،ط1، عمان،2007

9-جورج طرابيشي، عدوى ما تبقى من القانونية؟، مجلة حوار، ع9، بيروت، لبنان،1988.

10-حفناوي بعلي،مسارات النقد و مدارات مابعد الحداثة، أمانة عمان الكبرى، ط1، الأردن،2007.

11-خيري منصور،الاستشراق و الوعي السالب، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ط1، بيروت، 2001.

12-رامي أبو شهاب، الرسيس و المخاتلة" خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد العربي المعاصر، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ط1، 2013.

13-سامي الوافي، المثاقفة النقدية و سؤال الهوية: الذات بالآخر، مجلة الآداب، ع2، جامعة الملك سعود، الرياض، 2014.

14-ك.تلوولوف و آخرون، موسوعة كامبريدج في النقد الأدبي، القرن العشرين المداخل التاريخية و الفلسفية النفسية، تر: اسماعيل عبد الغني و آخرون، المجلس الأعلى للثقافةن ج9، ط1، 2005.

15-ماجدة حمود، إشكالية الأنا و الآخر، عالم المعرفة، الكويت، ع398، 2013.

16-محمد عبد الرحمن الجباري، مسألة الهوية و العروبة والإسلام و الغرب، مركز الدراسات الوحدة العربية، سلسلة الثقافة القومية، بيروت.

17-ميجان الرويلي و سعيد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، المغرب، 2002.

18-نبيل راغب، موسوعة النظريات الأدبية، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط1، لونجمان، 2003.

19-والياتيلي صدام، ما بعد الحداثة" ادوارد سعيد و تدوين التاريخ، تر: عفاف عبد المعطي، رؤية للانتاج و التوزيع،دط، القاهرة، 2006.

20-وليد خالد أحمد، الآخر في الثقافة العربية من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين، كتابات الخميس، ط4، 2013.

ثالثا- المواقع الإلكترونية:

1-خيري دومة، عدوى الرحيل" موسم الهجرة إلى الشمال و نظرية مابعد الاستعمار" من الموقع-www.ibm-ruhd.org.adwa-ai

2-غزلان هاشمي، مابعد الكولونيالية من الهامش غلى المركز، مجلة دليل الكتاب، ديوان الكتاب للثقافة و النشر، www.amamtrropos.com

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

شكر وعرفان

مقدمــة: .....أ

المدخل: الإطار المفاهيمي.....4

مدخــل: 4

1. في ماهية المصطلح :.....4

2- الدراسات ما بعد الكولونيالية : 9

- رواداها:.....13

3- مابعد الكولونيالية كاستراتيجية قراءة: 18

أ- جدلية الأنا و الآخر:Dialectique du moi et l'autre.....18

- مفهوم الأنا: 19

- مفهوم الآخر:.....20

الفصل الأول: الشخصيات في إطارها الزمكاني.....23

أولا: الفضاء المكاني.....23

ثانيا: ازدواجية الهوية وتمزق الذات أمام الآخر 29

ثالثا: دراسات الشخصيات:.....36

1-شخصيات الأنا:.....36

2-شخصيات الآخر:.....54

2-شخصيات الأنا:.....56

الفصل الثاني: إمتداد الفكر الكولونيالي للأنا والآخر 78

1- الأنا داخل إطارها الكولونيالي: 78

2- الآخر الكولونيالي: 90

3- التفاعل بين الأنا و الآخر: 95

الخاتمة: 118

قائمة المصادر و المراجع: 121

فهرس الموضوعات 123

الملخص:

تولت هذه الدراسة رواية فضل الليل على النهار للروائي الجزائري محمد مولسهول الملقب بياسمينة خضرة، وفق نظرية ما بعد الكولونيا لية حيث ركزنا على طرح أشكالية الأزمة الهوياتية للبطل يونس التي تنوس بين هويتين مختلفتين هوية يونس المهمشة وهوية جوناس المركزية وعليه أمكننا من طرح التساؤلات التالية:

ما هو السبب الحقيقي وراء ازدواجية هوية يونس؟

هل أزمة هوية البطل نفسية؟

ما هو السر الحقيقي وراء تمسك يونس بالآخر على حساب الأنا؟

يمكننا القول إن جوهر أزمة هوية يونس يكمن على مستوى الذات في علاقتها المتوترة والمتمردة بين أنا مستعمرة مستلبة اخر مستعمر مهيمن، بغض النظر عن السبب الحقيقي الذي جعله يعيش أزمة هوية وصلت به الي ذروتها.

Summary:

-We have studied the novel Fadl Al-Layl by the Algerian writer Mohamed Sohoul، nicknamed Yasmina Khadra، according to the post-cologne theory، where we focused on revealing colonial domination،are contradictions within the novel، and then the problem of identity crisis of the hero Yunus was raised، which doubles between two different identities، Yunusra's identity and Jonas' central identity. Accordingly، we can ask the following questions:

-What is the real reason behind the dual identity of Yunus?

Is the identity of the hero crisis psychological?-

-What is the real secret behind Yunus' attachment to the other on the ego?

To have a problem with the identity of the fact that they have a real relationship with the self، which made them have a problem with the fact of the matter.